



ابوسمبل

تأليف: محمد فتحى عوض الله

تقديم الدكتور ميسون توري

بين الصخر والانسان



دار المعارف بمصر

أَبُو سَمِيلٍ

بَيْنَ الصَّخْرِ وَالْإِنْسَانِ

أَبُو سَيْمِيلُ

بَيْنَ الصَّخْرِ وَالْإِنْسَانِ

تأليف

محمد فتحي عوض الله



دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.ع.م

تقديم

هذا كتاب قيم جمع بين العلم والفن والتاريخ في دياجة أدبية جميلة .

إلى أنه درس حضارى ما أحوجتنا إليه في وقت نكاد نتنكر فيه لتاريخنا الأصيل ، وننسى أننا من المصادر الأولى لحضارة البشر .

الدكتور حسين فوزى

المؤلف

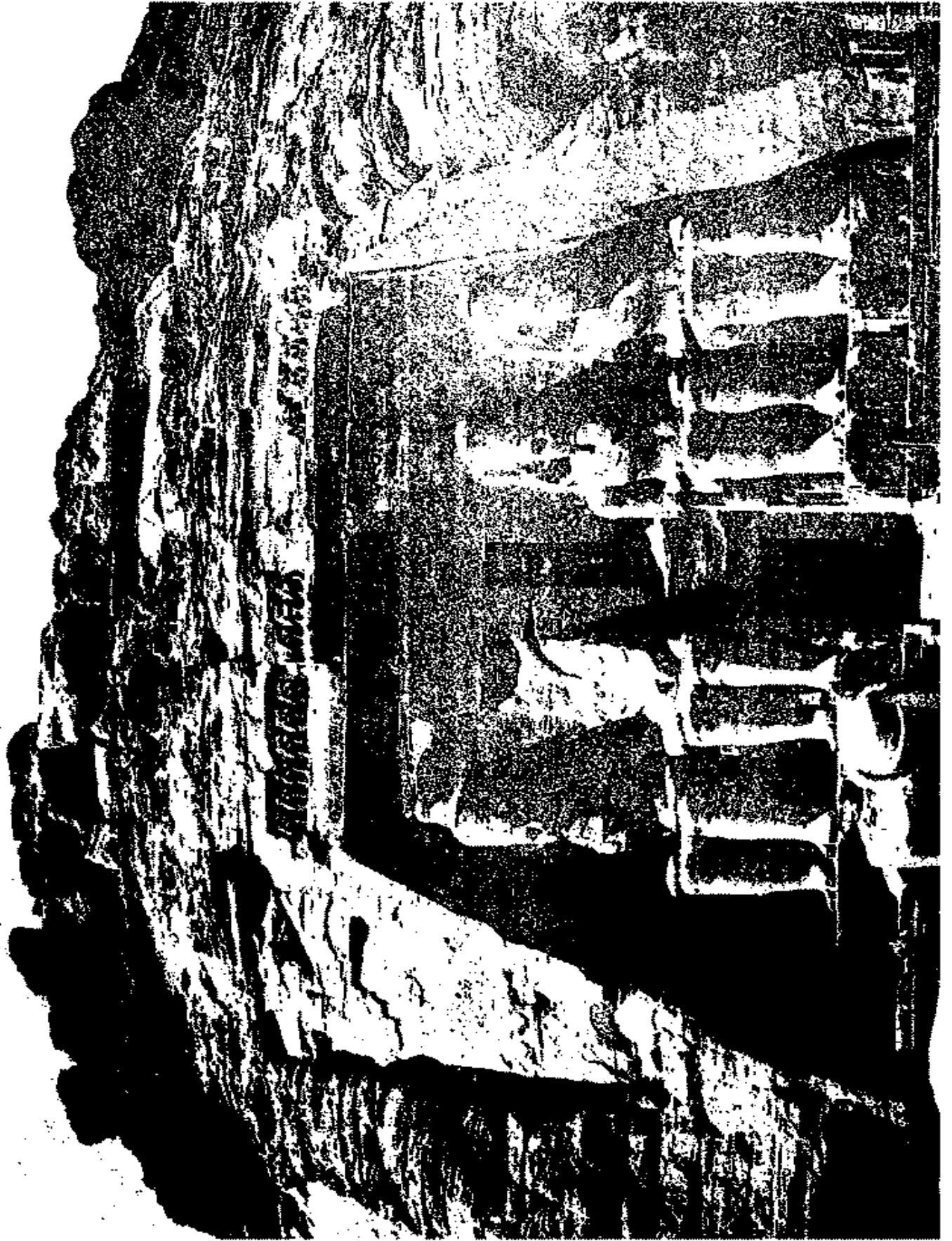
- تخرج في علوم القاهرة ١٩٥٦ .
- دبلوم عال في الجيولوجيا التطبيقية .
- ماجستير في الجيوكيمياء .
- باحث بالبحوث الجيولوجية والتعدينية .
- شارك في البحوث التي تمت على الخامات المعدنية والدراسات الجيولوجية في مصر .
- قدم للمكتبة العربية مايلي :
- ١ — كيمائية الفحم في عيون موسى بسيناء مع آخرين (بالإنجليزية)
- ٢ — قصة الحديد في مصر (بالعربية)
- ٣ — قصة الفحم في مصر (بالعربية)
- ٤ — المصادر الطبيعية للطاقة . . . (بالعربية) . ويصدر له قريبا .
- ٥ — عن النيازك والشهب . (بالعربية)
- ٦ — من الظواهر الطبيعية في الصحارى المصرية (بالعربية) .

المحتويات

صفحة	
٩	١- المقدمة
١٣	٢- تكون الصخر نظريات في نشأة الأرض - الحجر الرملي النوبي ، تكوين من التكوينات الجيولوجية للتراب المصري - التكوينات الجيولوجية لمصر - تطور البحث في التعرف على الحجر الرملي النوبي - نظريات عن كيفية تكوينه ..
٤٥	٣- وجرى النهر نهر النيل بين الأصل والنشأة - الإنسان والنهر - المصريون الأول - اكتشاف الزراعة في بلاد النوبة - عصور حضارية ترتبت على الزراعة - فجر الحضارة الفرعونية وتطورها
٧٢	٤- ونطق الحجر علامات على طريق الحضارة - الحياة الاجتماعية عند الفراعين - الدين - العلم - الفن - معبد أبو سمبل

ورمسيين الثاني — السبيل إلى فك طلاسم ونقوش تلك
الخطارة — والحجر ، حجر رشيد.

- ١١٧ ٥ — ثم ، موعد مع القدر
حاجة الشعب إلى مياه نهره ، دافعه إلى التحكم فيه —
علامات على طريق ذلك التحكم — سد أسوان والسد العالي —
نقل آثار النوبة حتمية حضارية وإنسانية — والموعد ،
لرمسيس الثاني مع القدر .
- ١٣٣ ٦ — المسيرة بالأرقام . . (ملحق أول)
- ١٣٦ ٧ — العصور الجيولوجية . . (ملحق ثان)
- ١٣٨ ٨ — المراجع



ه أبو سبيل ء كا كان وكا تركه وميس الثاني ء وقيل نقله من
موقه القديم الى موقع آخر في سبتمبر ١٩٦٨ ▶

المقدمة

كان للعمل الرائع الذي شاركت فيه بالجهود الدولية من خلال منظمة اليونسكو ، والذي أسفر عن إنقاذ آثار النوبة ، وقع جميل على نفوس هؤلاء الذين يقدرون التراث الإنساني حق قدره على مر العصور . وآثار النوبة بما فيها من روعة وجلال ومقدرة فنية ، أضحت اليوم ملكاً للإنسانية بعامة ، بقدر ما هي ملك لمصر بخاصة . فهي آثار تدل على حضارة ومدنية . . والحضارة والمدنية في تاريخ الإنسانية محطات للآمال في التقدم ، ودفعات دائماً إلى أمام . ولعل التعبير الجميل الذي ورد على لسان مدير هيئة اليونسكو ، « ر. ماهو » ، في الاحتفالات بإتمام نقل معبدى أبوسمبل في سبتمبر ١٩٦٨ ، يفصح عن هذا المعنى ويبين . . . قال : « إن المدنيات أشبه شيء بواحات صغيرة في تاريخ البربرية الطويل . الذي يتكون منه عمر الإنسانية » .

وأية حضارة هنا وأية مدنية ؟ ! إنها حضارة الفراعين ، ومدنية المصريين، الأقدمين . أولى الحضارات وأسما على أكثر الأقوال وأرجحها . والعمل الملحمى هنا .. هو نقل معبدى «أبو سمبل» ، وتمثيل رمسيس وآلته وزوجته ، على واجهتيهما . ورمسيس ملكاً ، كان عظيماً . . ورمسيس زوجاً ، كان أيضاً عظيماً . . ولقد نخلد نفسه ونخلد حبه لزوجته

في أثر عظيم — معبد أبو سمبل * جعل شمبايون — العلامة الفرنسي
في الآثار المصرية — عند رؤيته يقول : « إننا أقزام أمام هؤلاء العمالقة » .
وعن معبد أبو سمبل هذا ، بين الصخر والإنسان ، لنا هذه المسيرة . . .
— لقد نحت رمسيس الثاني معبديه هذين له ولزوجه — في جبل
صنديد أصم من الحجر الرملي النوبي . . . ولقد تناولنا في بحثنا هذا ،
التعريف بنوعية هذا الصخر وكيفية تكوينه وسر تسميته . . . وتلك أولى
الخطى في المسيرة

— كذلك فإن حضارة رمسيس ومدنيته امتداد لحضارة فرعونية
طالت ، وما كانت لتكون ، لو لم يكن نهر النيل الخالد ، الذي وهب
مصر خصبها ، فكانت الزراعة . وساند الزراعة ونماها ، فكانت الوفرة
في الإنتاج سبيلا للحضارة والمدنية . ولقد تناولنا في بحثنا هذا التعريف
بالنهر وتكوينه الأول ، ثم الحالي . . . وهكذا بعد أن تكون الصخر ، جرى
النهر ، وتلك ثانياً الخطى في المسيرة .

* للدكتور حسين فوزي رأى في التسمية ، فهو يقول :
هناك : أصلان : الأول من « أب » : أبوعلى وأبو عفان إلى آخره .
والثاني من آبا أي القديس . ومنها أبو قير . والأبوة هنا ممنوعة من الصرف . فلا نقول :
دخلت « أبا » قير عصراً . وأبو قير ، أي القديس فيروس ، هو « سان سير » عند الفرنسيين .
أما التفسير من لغة مصر القديمة (بوسمبل) ففيه مفتح .

— سادت الحضارة الفرعونية زماناً طويلاً ، ولكن ليس هناك أطول من الزمان ذاته ، وأبقى . . . ومن ثم فلكل شيء نهاية . . . وبعد أن سادت تلك الحضارة ، بادت . ولكن ظلت معالمها بارزة وآثارها باقية ، وإن يكن سرها قد اختفى وراء تتابع الأيام ، ومر العشى ، وتكاثف أحداث التاريخ . . . وما كان ليكشف هذا السر ، لولا أن عرفت أسرار لغة هؤلاء القوم ، وفكت طلاسم نقوشهم وكتاباتهم . . . ولقد تناولنا في بحثنا هذا ، الإلمام بالأسباب الحضارية التي أدت نهاية وغاية ، إلى ذلك التطور الحضارى المتملن الذى نلمسه فى عملنا الملحمى الخالى — نقل معابد رمسيس الثانى فى النوبة . ولكن لانسى وقد تفتحت لنا صحائف الماضى بأثمة بأسرارها ، أن كان السبيل إلى ذلك ما نطق به الحجر . . . والحجر ، حجر رشيد . . . وهكذا بعد أن تكون الصخر ، وجرى النهر نطق الحجر ، وتلك ثلاثة الخطى فى المسيرة . . .

— عرفنا أسرار الحدود ، وفاخرنا الزمان بمجدهم وما خلفوا من مخلفات عز على الزمان منالها ، وبان للعالم أن لنا فى ماضى من الزمان حضارة . وأنا نمت للمدنية بأسباب وأسباب ، بل هى وليدة أرضنا ، ومن فعل أسلافنا . . . ولكن الزمان حول قلب . . . وإن تكن شمسها توارت عنا بعض حين ، فإننا اليوم لها . . . وعلى مشارف الطريق ، ها نحن نشمر عن السواعد ، ونبنى سدنا العالى . . . أموعد مع القدر ؟ نعم ، هو ذلك . . . موعداً لشعبنا وجيلنا . ولكنه كان أيضاً ، موعداً مع القدر

لرئيس الثاني ومعبدية في «أبوسمبل» ، لينقلا إلى موقع جديد، وتعود
يا رئيس تملأ سمع الدنيا وبصرها . . وإن لم يكن هذا موعداً لك مع
القدر ، فإذا يكونا ١٩ وهكذا ، بعد أن تكون الصخر ، وجرى
النهر ، ونطق الحجر . . كان موعد مع القدر ، وتلك رابعة الخطى
في المسيرة . .

عزيزى القارى :

تلك مسيرتنا ، وتلك علامات أربع على سبيلها ، أرجو أن أكون
قد وفقت في اصطحابك معي - وعنصر التشويق ثالث ثلاثة - عبر
رحلة تمتد طويلاً ما بين مئة مليون سنة تقريباً ، مضت ، حين تكون
الصخر الذى اتخذ رئيس الثاني وزوجته معبديهما في جوفه كمنارتين
رهيبتين ، وبين عامنا ١٩٦٨ ، حيث عملت المناشير واستخدمت
الوسائل التكنولوجية التى تمخض عنها القرن العشرون ، في تقطيع أوصال
الجبل ، وجز الصخر ، ونقله من مكان ترسيبه ومعه المعبدان ، إلى موقع
آخر جديد . .

ذاك هدفى ، وتلك سبيلى ، وعلى الله قصد السبيل.

محمد فتحى عوض الله

اللق في نوفمبر ١٩٦٨

تكون الصخر

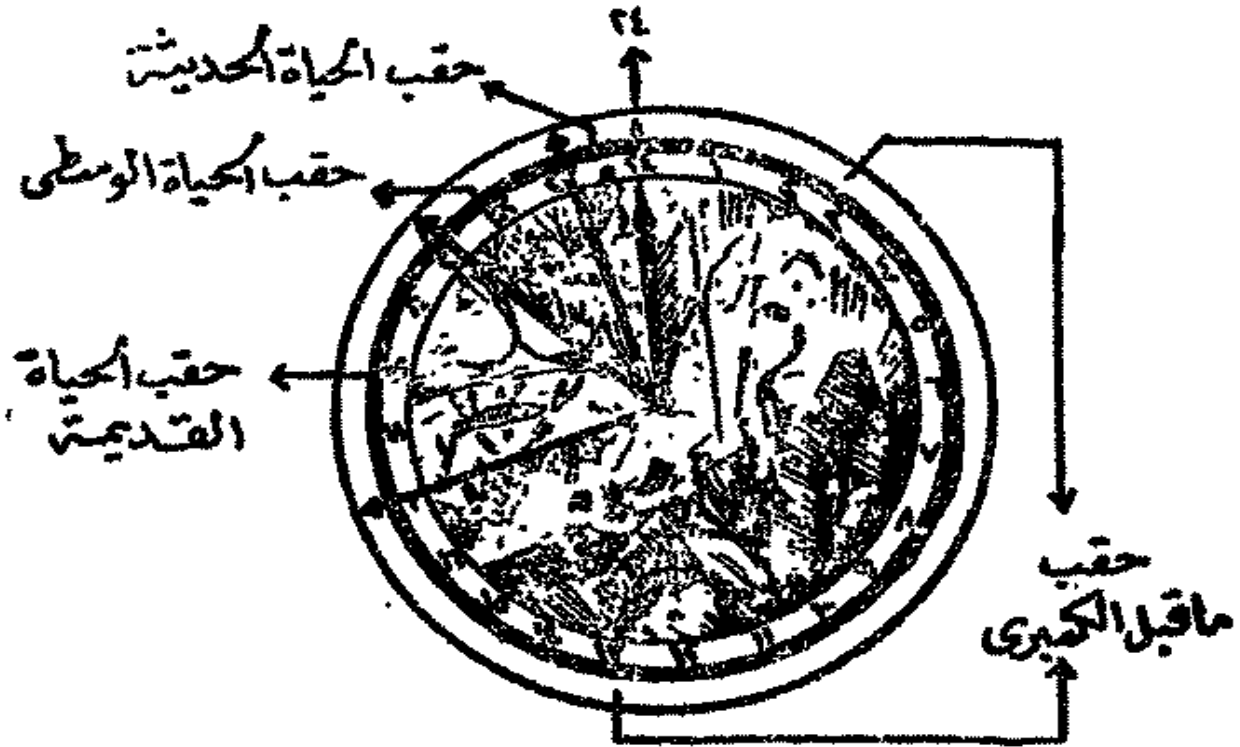
يسود اعتقاد خاطئ مؤداه أن الصحارى المصرية ليست إلا متسعات من رمل ذهبي اللون ، يمتد من النيل إلى المحيط من ناحية ، ومنه إلى البحر الأحمر من الناحية الأخرى . وتستند هذه الفكرة إلى وجود رمال كثيرة تملأ المنخفضات المحمية من الرياح وأثرها ، في مرتفعات الصحراء الغربية ، حيث تحف هذه المرتفعات الرملية بوادئ النيل . ولكن ، لقد قدر الجزء الذى تغطيه الرمال في صحراء ليبيا أو الصحراء المصرية الغربية ، بما لا يزيد عن تسع مساحتها . فإذا أدخلنا في اعتبارنا المناطق الجبلية ، التى تحف بالبحر الأحمر ، صارت نسبة الجزء المغطى بالرمال إلى بقية التراب المصرى ، جزءاً صغيراً جداً ، ويتبقى بعد ذلك هضاب من الحجر الجيري شاسعة الاتساع ، وجبال وكتل من الجرانيت والصخور النارية ، شاهقة الارتفاع ، ومنخفضات نسيية من الحجر الرملى . ومهما كبرت تلك المساحات وامتدت ، وكان لها أهمية جيولوجية بحته فإنها تعتبر ثانوية إذا ما قورنت بمنخفض وادئ النيل الطويل الضيق ، والذى ارتبط اسمه باسم أقدم المدنيات في العالم . وبدراسة هذا المجرى المائى الهام ، أو النهر العظيم من الشمال إلى الجنوب فإنه يكشف عن سلسلة من التباين ذات دلالة نافعة ، ولتقرب من هذا النهر في سبيلنا إلى الجنوب ، لرى عن قرب مجراه . .

نجد أن الـ.ر يضيق ما بين إدفو وأسوان ويقل النطاق المتررع حتى يضحي شقة ضيقة تحف بمجرى النهر . ولتركيب العام هنا طبيعة خاصة ، فظروفها تشبه الظروف التي أدت إلى تكوين الشلالات في الجنوب فنجد أن النيل مثلا عند منطقة السلسلة وعند منطقة سلوة ، قد نحت حاجزاً من الحجر الرملي كان في وقت مضى يحجز مياه النيل في شكل بحيرات عظيمة . ثم عند أسوان وجنوبها تكون صفور الجرانيت والصخور النارية الأخرى ، حاجز الشلال الأول . ثم نجد شلالا بعد الآخر في المجارى الضيقة ، بين الجزر الصغيرة التي تعوق إلى حد ما مجرى النهر . وهناك يضيق مجرى النهر إلى أقل من ١٥٠ متراً بعد أن كان يبلغ عرض النيل الهادئ كيلومتراً ونصف الكيلومتر عند الخرطوم .

ويقع الوادى النوبى إلى الجنوب من الشلالات ، وتحف به من الشرق جروف شاهقة ، ترتفع دفعة واحدة عند حافة الماء . أما في الغرب فالجروف منخفضة عادة وكثيراً ما تكون منفصلة في شكل تلال منعزلة وتمتلئ كل تجاويرها برمل ذهبي أصفر . وتقل هناك المنطقة المتررعة حتى تعود شقة ضيقة ... ممتدة بين النهر والبحرف ، ولكنها كانت أهلة بالسكان قبل بناء السد العالى .

وينهى ذلك الوادى عند منطقة وادى حلفا ، إلى الجنوب قليلا من الحدود المصرية السودانية . وتوجد الشلالات في مجرى النهر حيث

رسم توضيحي يبين بالمقارنة المدى الزمني لامتداد
الحقب أو العصور الجيولوجية التي توصل العلماء لها
باجتهادهم تقديراً لعمراً الأرض، منذ كانت إلى اليوم



لواقترضا أن عمر الأرض هو ٤٤ ساعة ، فإن لرسم يوضع ساعة بومراتها
الزمنية المتفاوتة عليها . ويكون القياس على ذلك كالآتي
أقدم العصور الجيولوجية المعروفة (حقب ما قبل كمبري) استمر نحو ١٧ ساعة .
حقب الحياة القديمة استمر نحو ٤ ساعة .
حقب الحياة الوسطى استمر نحو ٢ ساعة .
حقب الحياة الحديثة استمر نحو ١ ساعة .
ويكون على ذلك ظهور الإنسان في هذه الحياة طبقاً لتلك التقديرات
والحسابات - لا يعدد الشمس دقائق الألفية :

توجد محضور الجرانيت، على حين يهدأ النهر وتنبسط مياهه وتتنظم، حيث يكون مروره وسط مساحات من الحجر الرملي النوبي المنتظم التآكل لتجانس حبيباته . وهذا هو الحال عند أقدام معبد أبوسمبل .
والحجر الرملي هذا ، ينتشر في أرض مصر حيث يوجد نطاق كبير منه جنوبي خط عرض ٢٦° في صحارى مصر بعامة ، وجنوبي مناطق الحجر الجيري الواسعة . وينتشر الحجر الرملي لمسافات بعيدة إلى الجنوب الغربى وإلى الجنوب فى السودان كذلك . كما أنه يكون قاع الواحات الثلاث الهامة ، البحرية والخارجة والداخلة . ولكون الحجر الرملي فى العادة مفكك الحبيبات نوعاً ما ، فهو معرض بنوع خاص للتحلات بالرياح والماء ، وغالباً ما يصعب على الإنسان أن يقرر أى هذين العاملين أكثر أثراً فيه .

وتعتبر هضاب الحجر الرملي فى الصحراء الشرقية الجنوبية محددة تماماً ، وخطوط صرف مياه الأمطار الساقطة فوقها والمهابطة إليها من تلال البحر الأحمر ، تمر مروراً مستعرضاً فى اتجاه النيل ، وفى وديان ضيقة عميقة . وتختلف هذه عن تلك التى فى المناطق الجيرية ، لعدم وجود الأرفف أو المدرجات الصخرية بالمرّة فى الوديان . ولذلك فإن الطرق متعددة وسهلة من نهر النيل شرقاً حتى جبال البحر الأحمر ، ابتداء من قنا وإلى الجنوب حيث يسود الحجر الرملي .

ومن أشهر الخواص ، مسامية الحجر الرملي . وهذه الخاصية تمكنه

من أن يمتص مقادير كبيرة من المطر الذي يسقط في الجنوب . ثم إن هذا الماء يأخذ طريقه تدريجاً تحت سطح الأرض منحدرًا نحو الواحات ، والأجزاء السفلى من وادى النيل . وهي وجهة نظر لم يزل الجدل العلمي بصددتها على أشده . ويفقد نهر النيل كثيراً من مياهه بسبب مسامية الحجر الرملي النوبي على طول مجراه ، من شمال السودان حتى بلاد النوبة . ولكن هذا الجزء المفقود من المياه يعود للنيل فيما بعد عندما يقل منسوب المياه فيه ، وبذلك تعتبر الأحجار الرملية النوبية خزانات طبيعية . ولكن نعود فنؤكد ، أن حضور الحجر الرملي النوبي لذلك تعتبر أقل صلابة نسبياً من الصخور الجرانيتية وربما كان ذلك لكثرة المسامية في الأولى وقتلها في الثانية . وغالباً ما ينتج عن تأثير المطر والرياح في الحجر الرملي التزوي الذي اتخذت فيه معابد أبو سمبل ، الآتي :

- ١ - سهول أو منخفضات فسيحة .
 - ٢ - وديان كبيرة لا تقطعها درجات صحرية .
 - ٣ - وديان صغيرة وعرة على امتداد الفواصل .
- وقبل أن نستطرد إلى دراسة وافية لصخور الأحجار الرملية النوبية التي بنيت فيها معابد رمسيس الستة بالنوبة، نود لو استعرضنا باختصار، التكوينات الجيولوجية التي تشكل التراب الوطني في مصر ، والذي تعتبر هذه الأحجار أحد تكويناته . .

تحتل مصر الجزء الشمالى الشرقى من قارة أفريقيا . ويكون جزؤها الشرقى - المكون من سلاسل جبال البحر الأحمر وجنوب شبه جزيرة سيناء - جزءاً من الكتلة العربية النوبية القديمة Arabo - Nubian massif -
 - صخور نارية جرانيتية و متحولة - التى تمتد شرقاً عبر البحر الأحمر وخليج العقبة إلى شبه الجزيرة العربية ، وجنوباً إلى السودان والصومال . كما تظهر بقايا هذه الكتلة عند وادى النيل فى أسوان والشلالات ، وعند جبل العوينات فى أقصى جنوب غرب مصر ، وفى أماكن متفرقة أخرى بجنوب الصحراء الغربية .

وتعد الكتلة العربية النوبية - صخور نارية جرانيتية و متحولة قديمة - وحدة تركيبية كبيرة الامتداد ، ظلت منذ أقدم الأزمنة مكاناً للتسيب ، ثم الارتفاع ، نتيجة حركات وتقلصات أرضية عنيفة متعاقبة ، ثم مسرحاً للنشاط البركانى ولعوامل التعرية المختلفة حتى تحولت معظم صخورها ، وثبتت كتلتها ، واستوت فى مسطح عظيم غطت أطرافه بحور متعددة ، تركت وراءها وعلى حافة هذه الكتلة غطاء من الرواسب المختلفة الأعمار التى تكون بقاياها اليوم الجزء الأكبر من سطح مصر .

أما هذا الجزء من أرض مصر المغطى بالصخور الرسوبية والذى يحد النواة العربية النوبية ، فينقسم تركيبياً إلى ثلاثة أقسام أساسية ، لها خواص تركيبية متباينة ، هى فى الواقع تعبير لفعل الحركات

الأرضية على كل منها . وستكلم هنا عن كل من تلك الأقسام بشيء من التفصيل ، الذى يلائم هذه الخلاصة :

الكتلة العربية النوبية : Arabo - Nubian massif

تمثل الكتلة العربية النوبية حوالى ١٠٪ من سطح مصر . وتتكون من صخور نارية ومنتحولة ، وأخرى رسوبية ، لم يتم بعد تحويها الكامل ، وتعتبر من أقدم صخور مصر ، وليس بأى منها آثار حفريات . كما أن الكثير منها قد تداخل بعضه مع بعض بدرجة تجعل معرفة العلاقات الستراتجرافية لطبقاته — أى مضاهاة الطبقات ببعضها — أمراً عسيراً . ولكن يبدو أن صخور هذه الكتلة قد تكونت خلال تطور دورة أوروغينية (Orogenic cycle) — حركة أرضية — بدأت بتراكمات هائلة من الرواسب فى حوض جيوسينكلينا لى عظيم — انخفاض فى الأرض — تداخلت فيه جدد وطفوح وأجسام قاعدية وتحت قاعدية كبيرة — مواد متصاعدة من باطن الأرض المنصهر — ثم أخذ هذا الحوض فى الانخفاض المستمر نتيجة تجمع هذه الرواسب ، على حين تأثرت أطرافه العليا بضغط جانبيية عظيمة ، كونت ثنيات كبيرة . أما قاع الحوض ، فتحولت صخوره تحت درجات الحرارة الكبرى إلى درجات متفاوتة من التحول والجرنتة — تكوين صخور الجرانيت — فتكونت تحت هذه الظروف صخور الشست والنيس ومختلف أنواع الصخور الهورنبلدية والجرانيت الرمادى

والأحمر — وقد ظهرت هذه الصخور بعد ذلك على سطح الأرض نتيجة حركات أرضية عنيفة انتابت المنطقة. وهي تغطي اليوم مساحات شاسعة من سلاسل جبال البحر الأحمر وجنوب سيناء .

٢ — الرصيف الثابت : (Stablesheif)

يغطي الرصيف الثابت حزاماً طويلاً من أرض مصر . إذ يمتد حول الكتلة العربية النوبية ، من سلاسل جبال البحر الأحمر وغرباً حتى الحدود الليبية . كما يغطي منتصف سيناء . ويتميز هذا الرصيف بأنه مغطى بغطاء رفيع من الرواسب شبه القارية أو الضحلة أو فوق القارية (Epicontenental) . ويتكون العمود الستراتيجرافى — الذى يبين تتابع الطبقات — فى هذا الحزام عموماً ، من رواسب رملية فى جزئه السفلى ، تنتمى إلى حجر النوبة الرملى . وهذه وحدة صخرية واسعة الامتداد فى جنوب مصر . وسيأتى الحديث عنها فيما بعد بالتفصيل . . . ثم يستكمل الرصيف الثابت برواسب بحرية ضحلة فى جزئه العلوى تنتمى إلى المد البحرى لعصرى الكريتاسى — الطباشيرى — الأعلى ، والثلاثى — الترياسى — الأسفل . . . ويزداد سمك الرصيف الثابت هذا ، كلما ابتعدنا عن الكتلة العربية النوبية أو حضور الأساس فى أرض مصر . وبالرغم من أنه من العسير تقدير سمك متفق عليه لرواسب

• انظر العمود الجيولوجى بالملحق الثانى فى آخر الكتاب ص : ١٢٧

الرصيف الثابت، لأن قاعدته غير ظاهرة ، ولم يكن في الإمكان التوصل إليها في أماكن كثيرة ، إلا أنه يمكن القول إن سمك هذا العمود الرسوبي ، هو في حدود ٣٥٠ - ٤٠٠ متر بجوار الكتلة العربية النوبية ، ثم يتزايد بعيداً عنها حتى يصل إلى ١١٠٠ متر في الواحة الخارجة مثلاً حيث أمكن حساب سمك الرواسب كاملاً ، عندما وصلت الآبار التي حفرت حديثاً في هذه الواحة إلى صخور القاعدة النارية والمتحولة . ويستمر سمك العمود الرسوبي هذا في الازدياد إلى الشمال ، حيث يصل إلى ٢٥٠٠ متر في الواحة البحرية أو أبو حمث في منتصف سيناء ، بعيداً عن الكتلة العربية النوبية ، وعلى الحدود الشمالية للرصيف الثابت. معنى ذلك ، أن كميات الرواسب فوق صخور الأساس في مصر ، تزداد شمالاً ، بما يوحى بكثرة الغزو البحري لأرض مصر . ومع طغيان الماء فوقها ، يحدث الترسيب ويزداد سمك العمود الرسوبي .

وتتميز الرواسب التي تكون الرصيف الثابت ، بأنها تنتمي على الأغلب ، إلى رواسب عصرى الكريتاسى الأعلى والثلاثى الأسفل - وهما عصرًا أقصى امتداد للبحر الأبيض القديم على أرض مصر . كما تتميز هذه الرواسب بامتداد وحداتها الصخرية التي تنتمي إليها ، امتداداً واسعاً ومتناسقاً ، حتى يمكن تتبع هذه الوحدات الصخرية على طول الحزام أو الرصيف الثابت ، من منتصف سيناء حتى أقصى غرب مصر ، لمسافة تزيد على الألف كيلومتر .

أما الجزء السفلى من هذه الرواسب فيتكون من رواسب رملية ذات امتداد جغرافي واسع على طول هذا الرصيف تنتمي إلى وحدة الصخور المعروفة باسم حجر النوبة الرملى . . . وهى صخرة تتميز حبيباتها الرملية بحسن تصنيفها وباستدارتها التامة وبكثرة تطبقها الكاذب وببساطة تركيبها المعنى . . . ثم تتدرج صخور حجر النوبة الرملى فى أعلاها ، إلى أنواع أخرى من الصخور ، طفلية وغرينية مليئة بالحفريات وبقايا الحيوان القديمة . ويبدو من الامتداد الجغرافى لوحدة صخور حجر النوبة الرملى وما فوقه من طفل متباين الألوان ، أن بجزراً ضحلا واسع الامتداد قد غطى سطح مصر فى أواخر العصر الكريتاسى ، حيث ترسبت فيه صخور حجر النوبة الرملى ، ثم انحسر البحر تاركاً وراءه عدداً من البحيرات التى احتلت الأماكن الواطئة نسبياً ، التى ترسبت فيها وحدة الطفل المتباين الألوان . . . وهو إلى الشمال من بلاد النوبة .

معنى ذلك أن حجر النوبة الرملى . . . يعد وحدة من الوحدات الصخرية التى تغطى أو تكون الرصيف الثابت . . . وهو أول هذه الوحدات الصخرية على الإطلاق . ويظهر أكثر ما يظهر ، فى مناطق من أهمها بلاد النوبة .

٣- تركيب السويس (منخفض السويس) *

نأتى بعد ذلك ، استكمالاً للرحلة الجيولوجية الاستكشافية للتراب المصرى إلى ما يسمى بجيوسينكلينال السويس القالى . وبرغم أن منطقة خليج السويس تقع أساساً فى وسط الحزام أو الرصيف الثابت من أرض مصر ، إلا أن هناك من الأدلة ما يثبت أن هذه المنطقة بالذات كانت منطقة هبوط مستمر ، منذ أقدم الأزمنة الجيولوجية ، مما أدى إلى أن تتكون فيها راسب سميكة تنتمى إلى مختلف العصور الجيولوجية . وهذا الاختلاف يجعل منطقة السويس فريدة فى تركيبها ، حتى إنهما لاختلف فقط عن بقية الرصيف الثابت ، بل أيضاً عن أخلود البحر الأحمر الذى يكون جزءاً لا يتجزأ من الخليج فى الوقت الحاضر ، إذ أن هذا البحر يعد حديث العهد نسبياً ، ونشأ أساساً فى منتصف العصر الثالث فقط . ولهذا فصلت هذه المنطقة بالذات إلى وحدة تركيبة مستقلة وأعطيت هذا الاسم .

* * *

٤- الرصيف غير الثابت : Unstable shelf

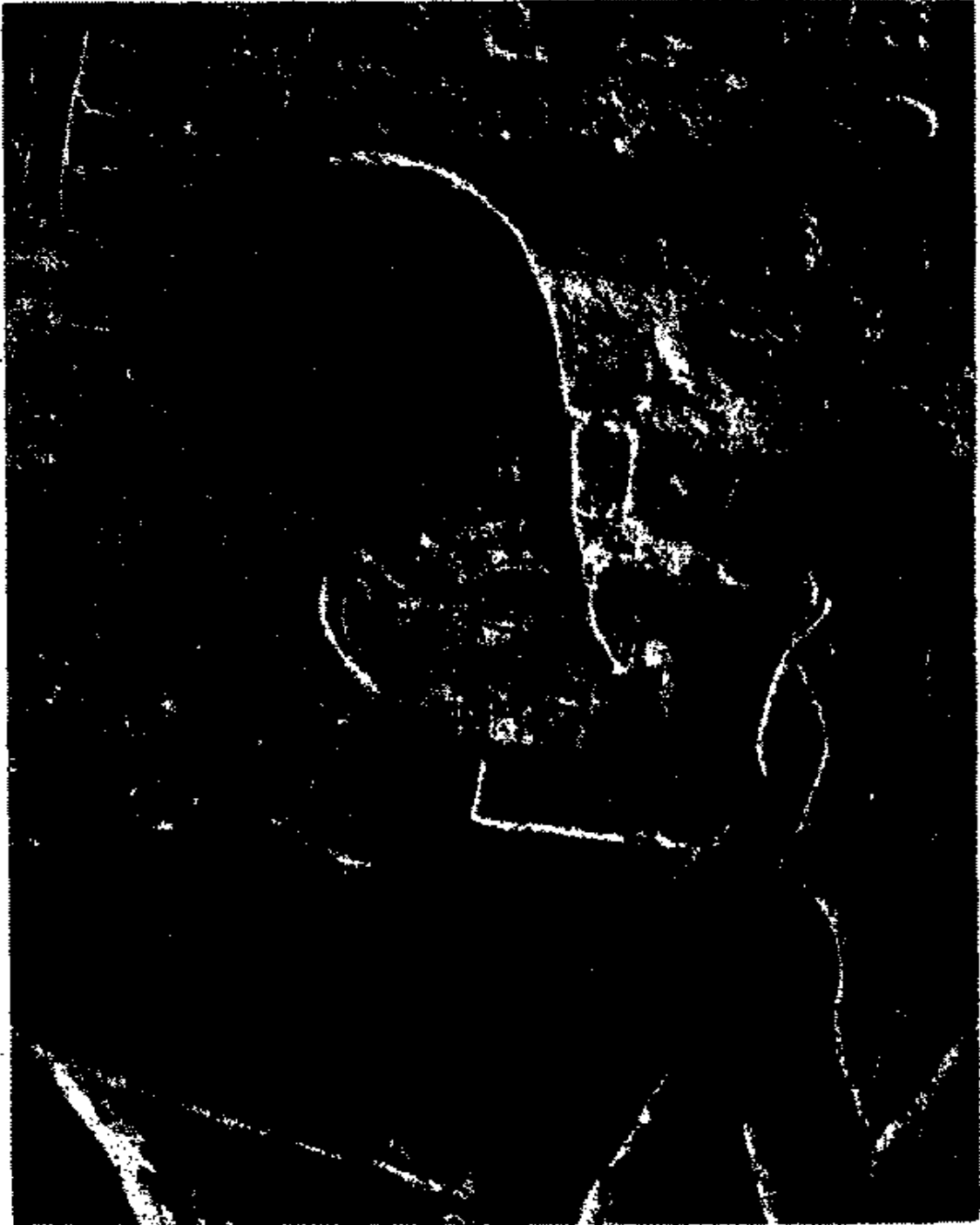
ومع نفس الاستمرار الجيولوجى ، لاستكشاف أرض مصر ، نصل أيضاً إلى ما يسمى بالرصيف غير الثابت . وهو تركيب يغطى الجزء

(*) جيوسينكلينال السويس القالى : (Gulf of Suex Taphrogeocyncline) .

الشمالي من سطح مصر ، وتتميز رواسبه بسمكها الكبير ، وبتشوهها بواسطة حركات أرضية نشأت عن طريق ضغوط جانبية ، فكانت عدداً من التنيات (Anticlines) الطويلة وغير المتماثلة التي فقدت في خلال تكوينها ، أجزاء من مساحتها الأفقية . ولقد تغطي الرصيف غير الثابت خلال تاريخه الجيولوجي ، بمعظم الامتدادات البحرية الهامة منذ الحقب الباليوزوي ، أو حقب الحياة القديمة . ومعظم رواسبه جيرية ذات أصل كيميائي أو عضوي ، وإن كانت هناك رواسب فتاتية (detrital) فيه ، وخاصة في جزئه الأسفل والأعلى ، نظراً لتعري الكتلة العرية النوية والرصيف الثابت ، خلال زمان ترسيبها . وبالبداهة ، فإن هذه الرواسب تتزايد كلما اتجهنا شمالاً . فهي مثلاً في الواحات البحرية تبلغ نحو ٢٦٤٠ متراً فوق الصخور الأساسية ، وهي في مرسى مطروح تزيد آلافاً كثيرة من الأمتار عن ٤٥٧١ متراً ، حيث لم يبلغ الحفر إلا هذا المدى فقط ، ولا بد أن عدة آلاف أخرى من الأمتار كانت أمام حافري هذه البئر قبل الوصول إلى الصخور الأساسية في تلك المنطقة والتي توقفوا فيها عند ضور العصر الكريتاسي الأسفل فقط . ولقد ظلت أرض مصر ، مجالا لانحسارات وامتدادات بحرية ، تغطيها على فترات متفاوتة من الزمان . . تمتد مياه البحر فترسب ، وتنحسر مياه البحر فتتعري الصخور . . وهكذا دواليك ، حتى كان بحر الميوسين ، وبانحسار بحر الميوسين الأوسط بدأت أرض مصر تأخذ



كان رمسيس الثاني يحب زوجته « نقرتاري » ولقد أحبها المحلوق كما
أحبته لنفسه وبن أجل ذلك بنى لها معبداً آخر بجوار معبده خصها به
وأجلسها معه بين الآلهة حبا وإعزازا .



رأس رومينس (تفصيل)

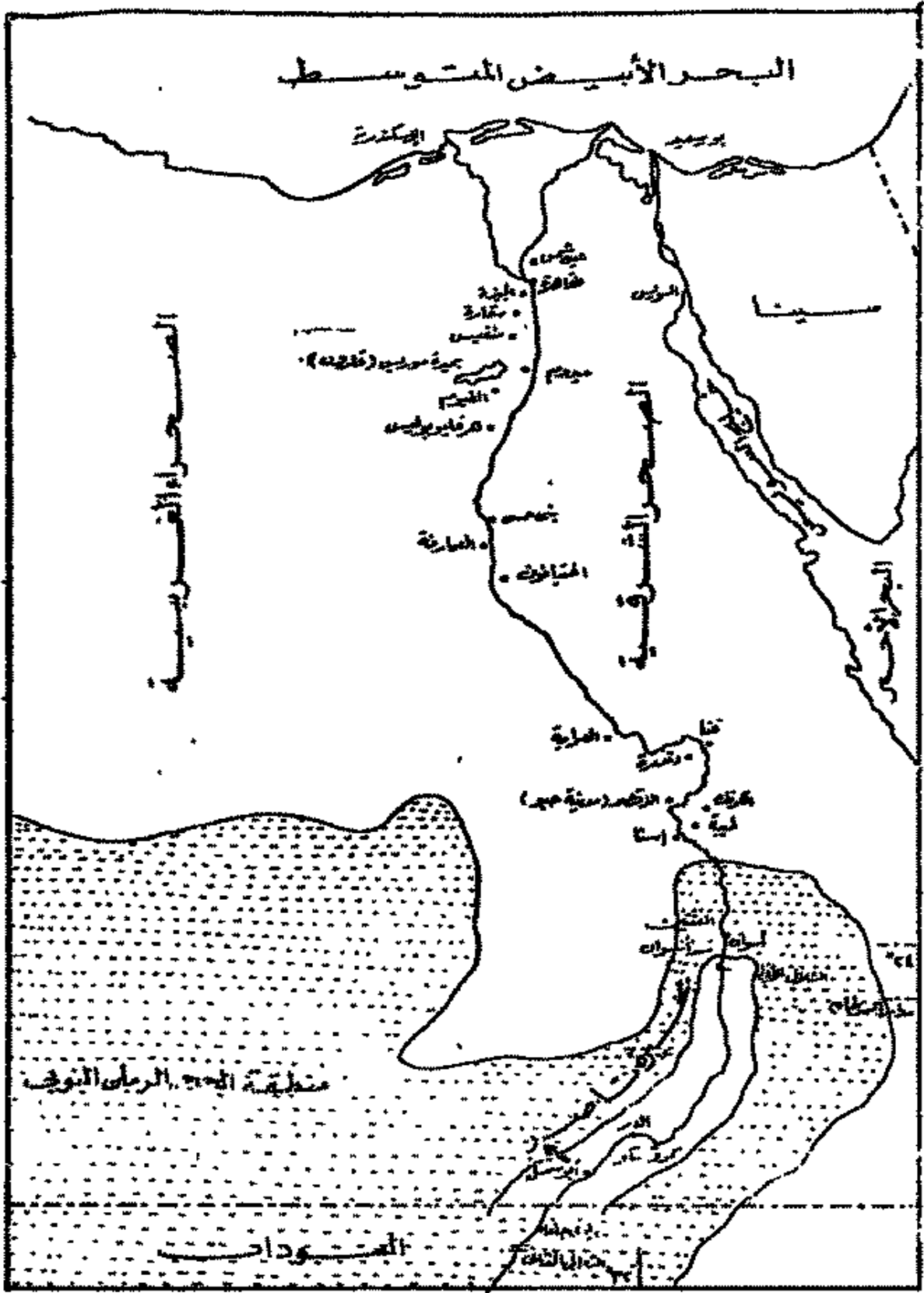
شكلها الحديث . ذلك بأن رواسب عصر البليوسين الذى أعقب عصر الميوسين ، لا توجد إلا على صورة رواسب بحرية قليلة الامتداد حول حد الزراعة الحديث فى وادى النيل ، الذى تكون خلال الميوسين ثم امتد فيه ذراع بحرى خلال عصر البليوسين .. هذا الذراع البحرى أخذ ، فيما تعاقب من أيام ، يمتلىء بالرواسب ويتراجع أمام مياه النيل التى ردمته ، ثم شقت طريقها فيه خلال عصر البليستوسين ، مشكلة وادى النيل كما نعرفه اليوم ، والذى قامت معابد الفراعنة الأقدمين .. على ضفافه عند النوبة ، ومن بينها معبد أبو سمبل وبقية معابد رمسيس الستة . من كل ما فات من تشكيلات وتركيبات صخرية فى التراب المصرى ، يشد انتباهنا فى صدد بحثنا هذا ، تلك الوحدة المسماة بالحجر الرملى النوبى .

حجر النوبة الرملى :

وتلك كما ذكر من قبل وحدة صخرية مكونة من طبقات متعددة من الحجر الرملى الجليد التصنيف المتوسط الحشونة ، ذى الألوان المتعددة وهو يميل غالباً إلى اللون البنى . وتغطى حضور الحجر الرملى هذه ، بلاد النوبة وجنوب مصر ، وتتخلله بعض طبقات الطفل وما يسمى بالكوارتزيت . وكلما اتجهنا شمالاً نجد أن حضور الحجر الرملى النوبى تتدرج ، مغطاة من أعلاها بمجموعة من حضور طفلية وخرينية متباينة الألوان ، وبها القليل من الحفريات التى تبين انتماء هذه الوحدة إلى العصر الكريتاسى أو الطباشيرى . وتمثل وحدة حجر النوبة الرملى ، الرواسب البحرية

السفلى للمد البحرى الذى غطى مصر فى أواخر العصر الطباشيرى . ويتراوح سمك هذه الوحدة من مكان إلى مكان . وهو فى حدود من ٣٥٠ إلى ٤٠٠ متر فى منطقة بلاد النوبة حيث يقبع معبد أبو سمبل سواء قبل انتقاله أو بعدما انتقل . ولحجر النوبة الرملى شهرة خاصة ، فقد حفر رمسيس الثانى ، الكثير من معابده بداخله ، مثل معابد أبو سمبل والدر والسبوع وغيرها . كما اتخذ منه أحجاراً وقُتِح فيه المحاجر فى جبل السلسلة شمال كوم أمبو .

وتوجد محفور الحجر الرملى النوبى واقعة فوق الصخور الجرانيتية ، التى يرجع عمرها إلى أبعد مما قبل حقب الحياة القديمة أو ما يسميه علماء الجيولوجيا أو طبقات الأرض بزمن ما قبل الكمبرى . وتميل فى غير حدة ، خطوط الطبقات فى ذلك الصخر إلى الشمال فى بعض الأماكن ، إلا أنها فى أماكن أخرى ، تكون أفقية تماماً . ولقد وجد أن تلك الصخور الرملية النوبية ، إنما تقع على سطح غير منتظم للصخور النارية والمتحولة ، التى تشكل قاعدتها السفلى . وليست المنطقة من بلاد النوبة حتى جنوبى أسوان ، مغطاة تماماً بالأحجار الرملية النوبية ، ولكننا نجد هنا وهناك فى أماكن متفرقة ، ظهور ارتفاعات بارزة للصخور الجرانيتية والمتحولة فوق السطح . كما أن هناك شواهد على أن سطح الصخور النارية والمتحولة ، التى يرقد فوقها الحجر الرملى النوبى ، قد تعرضت يوماً ما فى الماضى البعيد ، وقبل أن يحدث ترسيب الأحجار



خريطة توضيحية تقريبية تبين أوسع مناطق ظهور الحجر الرمل النوبي على سطح الأرض في مصر. وهذا لا يعني بالطبع عدم ظهوره في أماكن أخرى من مصر - كما لا يعني أن هذه المساحة لا تشملها، ما كن ظهور صخرة الأقواس أخرى من الصخور المختلفة كالجرايت مثلا. كذلك تبين موقع بحيرة ناصر ومواقع الحفارة الفرعونية القديمة وبخاصة أبو صير.

الرملية فوقها ، لعوامل نحت وتعرية أو تجوية ، لزمان طال كثيراً قبل أن ترسب سلسلة الصخور الرملية النوية هذه . ويميز المتخصصون سلسلة صخور الحجر الرملى النوى إلى مجموعات ، منها المجموعة العليا والمتوسطة والسفلى . ولكل منها عندهم ، مميزات وصفات خاصة ، وإن تكن جميعاً تشترك في الصفات العامة التى تجعل منها أحجاراً رملية نوية .

* * *

ولكن ما هى قصة الصخور النارية والمتحولة ؟

يقول التاريخ الجيولوجى ، إنه إذا رجعنا إلى الماضى السحيق فى تاريخ الكرة الأرضية ، فإننا نجد أن القشرة الأولى للأرض يزيد عمرها على ألفى مليون سنة أو نحوها . . وهذه هى قشرة الجرانيت . ولم يكن على الأرض حياة فى تلك العصور السحيقة ، وبدأت الحياة فى البحار منذ نحو ٥٢٠ مليون سنة . وبدأت النباتات على سطح الأرض منذ نحو ٣٠٠ مليون سنة تقريباً . وفى فجر الحياة الأولى ، أى منذ نحو ٥٢٠ مليون سنة تقريباً ، بدأ الاتصال بين المحيط الباسفيكى والأطلنطى . أى بدأ تكوين بحر جديد هو البحر الأبيض القديم . . فلقد كانت القارة القديمة الكبيرة الجرانيتية التى سميت أرض (جندوانا) تشمل أمريكا الجنوبية وأفريقيا وبلاد العرب وجزءاً من الهند وجزءاً من أستراليا مع مساحة البحار التى بينها . . . كانت جميعها تمثل أرض تلك القارة الشاسعة الأطراف . ونقول إنه قد بدأت تلك القارة فى الانخفاض ، وتكون البحر الأبيض

وامتد جنوباً في أرض مصر في عدة غزوات ورجعات .
ولقد يحتم الاستطرد أن نوغل أكثر وأكثر ، في مجاهل التاريخ
الجيولوجي . . ماذا كان قبل الصخور النارية وقبل المياه في المحيطات ؟
في البدء كان الله صاحب الوجود الكامل والمطلق ، وهو الأزل
الذي لم يسبقه شيء ، وليس كمثل شيء . وهو الخالق الباقي بعد أن يفنى
كل شيء . . وأراد الله أن يخلق كوناً محدوداً بعلمه ولا محدود في علم
البشر ، فقال كلمته ، كن ، فكان . كوناً أقصى ما بلغ الإنسان في
معرفته أنه تشكل من غازات ترابية سديمية كانت تدور في الفضاء الذي
بخلقه الله ، محدوداً بعلمه ولا محدود في علم البشر . وبقوة الطرد المركزي
كانت الكتل ، مشكلة من الغازات الترابية . ومن تلك الكتل والتجمعات
الغازية ، كانت النجوم ، ومن حول النجوم ، كانت الكواكب .
وللكواكب أقمار تبع . . وكانت الأرض كتلة من تلك الكتل السديمية من
غاز متكاثف ، تتأرجح في الفضاء ، إلى أن يشاء الله الخالق .
" . . وافترض العلماء لتكوين الأرض فروضاً . . منها :

(١) فرض يقول ، إن الأرض كانت سديماً وغازات تكثفت ثم
راحت تفقد بعضاً من حرارتها بالإشعاع إلى الفضاء المحيط بها حتى كان
مع الوقت ، الشكل الكروي الملتهب الذي تركزت مكوناته المعدنية
الثقيلة من بعد تجمع ، وتحت تأثير الجاذبية ، في شكل لب مركزي
ثقيل ، على حين ربيت المواد الأخف نفسها على شكل طبقات خارجية .

ومع الوقت بردت هذه الكرة الملتهبة بالدرجة التي سمحت بتكوين الغلاف الخارجى من قشرة الأرض الصلدة . ثم باستمرار تقلص الباطن الملتهب بأسرع من السطح أو القشرة الخارجية ، تجعد هذا السطح ليلائم الأبعاد الجديدة . وعندما برد السطح للدرجة كافية ، تكثف البخار المائى المحيط بالأرض ثم ترسب إلى ما نرى اليوم من كتل مائية . ومن ثم ، بدأت دورات التعرية والتفتيت ثم الترسيب ثم إعادة تكوين الصخور عبر كل العصور الجيولوجية اللاحقة . ومن الصخور التي تفتتت ، كان الجرانيت ، وفتاته رمال ، تصلدت من جديد ، لتتكون منها الأحجار الرملية النوية ، التي شيد فيها معبد أبوسمبل وغيره من آثار الفراعنة في النوبة القديمة .

(ب) وهناك فرض آخر يقول ، إن السدم الغازية الأولى في المجموعة الشمسية ، بردت بسرعة ثم رتبت نفسها في شكل مغزلى من مادة شهابية صلدة ، والتي تحت فعل الجاذبية ، تجمعت في أشكال كان أكبرها نواة الشمس ، وكانت الأخر ، نويات للكواكب المتبقية في المجموعة الشمسية . وإنه يعتقد أن تجمع وتركيز تلك المادة الشهابية قد أنتج حرارة تكفى لأن تفصل المادة في كل كوكب ، تبعاً لكثافتها وثقلها النوعى . فكان في الباطن العميق لب من معادن ثقيلة ، وكان على السطح الغلاف الصخرى من المادة الخفيفة . تلك المادة هي الجرانيت . . وتفتتت الجرانيت بالتعرية ، فكان رمالا . . ثم تماسكت الرمال من جديد ،

ونحت ظروف مستحدثة فكانت الأحجار الرملية ، ومنها الصخور الرملية النوبية التي اتخذت فيها معابد الفراعنة في بلاد النوبة . .

* * *

والأحجار الرملية النوبية ، تسمية أصبحت اليوم تطلق على مكونات شبيهة ، لها نفس التركيب ، وذات الصفات ، ولا يهم أنها تتواجد في بلاد النوبة مثلا . . . هذه حقيقة علمية استغرقت من البحث العلمي سنين طويلة . . . وسوف نسيح هنا مع تاريخ البحث العلمي لهذا التكوين الجيولوجي ، ولعلنا نخرج من هذه السياحة بمعرفة لماهية البحث أولا ، وكيف يكون ، ثم تعرفاً على الأحجار النوبية ذاتها ، وهل هي نوبية زماناً ومكاناً بمعنى أنها لا توجد إلا في النوبة التي بها تسمت ، أم أنها تكوينات لها نظائر في أماكن أخرى ، وما هي إلا تسمية فقط .

• إن أول من استخدم هذا الاسم هو « جوزيف روسيجر » (J. Russegger) في عام ١٨٣٧ . ولقد اختيرت صفة « النوبي » هذه لأن ذاك النوع من الأحجار الرملية يظهر على السطح تماماً في منطقة النوبة ، تلك المنطقة التي يشقها وادي النيل في كل من مصر والسودان . ولقد وصف « روسيجر » تلك الأحجار الرملية النوبية على أنها من العصر الطباشيري المبكر ، وسجلها على الخرائط التي رسمها لمصر والنوبة ، وقرر

فيها أن مثل تلك الطبقات الصخرية لا يمكن أن تكون ذات عمر يقل عن العصر الطباشيري المبكر .

● ومنذ عهد « روسيجر » ذلك ، شاع الاسم وأطلق على كل نوع من الصخور يطابق الأحجار الرملية التي عرفت وتسمت باسم بلاد النوبة ، بصرف النظر عن مكان تواجدها ، سواء في مصر أو في أي مكان من شمال أفريقيا ككل .

● ثم جاء « فيجاري بك » (Figgari Bey) في عام ١٨٦٤ ، والذي حاول أن يصف التكاوين الجيولوجية لمصر ، فقرر أن في العصر الترياسي أو الثلاثي ، توجد وحدتان من حخور الحجر الرملي تتخللهما طبقة رقيقة من الحجر الجيري ، الذي توجد به حفائر تدل على التكوين إبان العصر الترياسي هذا .

● وبعد ذلك جاء « بويرمان » (Bauerman) في عام ١٨٦٩ حيث وصف بعض مناطق شبه جزيرة سيناء في الجمهورية العربية المتحدة ، وكتب يقول : إن في وادي نصب ، وفوق حخور الشست المتبلور ، توجد طبقتان من الأحجار الرملية تفصلهما أيضاً وحدة رقيقة من الحجر الجيري يصل سمكها ما بين ٨ - ١٥ قدماً ، تحوى حفائر يحتمل أن تكون من العصر الترياسي أو الكربوني . وإلى الجنوب من ذلك يتغلى هذا التكوين بطبقات رسوبية من العصر الطباشيري .

ولقد أعطى (بويرمان) لتلك التكاوين الحجرية الرملية ، عمراً يبلغ العصر الترياسى . . على أنها تقع على قاعدة من الجرانيت أو الازدواز ، تتبع من أعلاها بصخور العصر الطباشيرى .

● ثم فى عام ١٨٧١ قال « تات Tate » إن تقدير عمر الصخور الرملية فى العصر الترياسى ، إنما هو تقدير لم يوضع على أسس وشواهد من علم الحفريات . . وهو الأساس العملى لعمليات المضاهاة بين الطبقات المختلفة ، والتي تؤدى فى النهاية إلى تقديرات للعصور الجيولوجية وأعمار الصخور . وفى الواقع أن (تات) قد عثر فى الأحجار الرملية فى وادى نصب فى سيناء على حفرة واحدة ولكنها فى حالة جيدة ، وكانت بلاشك من حفريات العصر الكربونى .

● ثم فى عام ١٨٨٣ اقترح « زيتل » (Zittel) إما تعديل صفة (النوبى) ، أو قصرها بحيث تناسب فقط الأحجار الرملية ، التي تكونت فى نهايات العصر الطباشيرى بالنوبة وأسوان والصحراء الشرقية .

● وفى عام ١٨٨٤ اعتبر « داوسن » (Dawson) مسألة تقدير عمر للحجر الرملى النوبى . . مسألة شائكة نوعاً ما . فعلى شاطئ النيل يشكل الحجر الرملى النوبى . أقدم التكوينات الرسوبية فوق الصخور المتبلورة القديمة كالجرانيت مثلاً . . ثم إنها متبوعة من أعلاها فى توافق تام بالصخور الطباشيرية . على حين فى شبه جزيرة سيناء ، نجد أن ما أطلق عليه الأحجار الرملية النوبية ، تحتوى حفريات من العصر الكربونى . وعلى

ذلك ، فإنه يبدو أنه في مصر العليا وفي سيناء ، تقع طبقات من الحجر الرملي المتكون في حقبة الحياة القديمة . تحت طبقات من أحجار رملية مشابهة ومتكونة في العصر الطباشيري المبكر .

● وفي عام ١٨٨٦-١٨٨٩ قسم « هول » (Hull) الأحجار الرملية النوبية إلى جزأين اثنين .

● السفلى ، ويقع ما بين الصخور المتبلورة القديمة ، كالجرانيت ، وبين صخور العصر الكربوني . وسماه بالحجر الرملي الصحراوي .
● العلوى ، وهو أقدم مما يتلوه من أعلى بالطبع من طبقات ، وسماه بالحجر الرملي النوبي ، ونسبه إلى العصر الطباشيري .

● وفي عام ١٩٠٠ قسم « بلانكنهورن » (Blanckenhorn) الأحجار الرملية النوبية إلى وحدات ثلاث . السفلى ونسبها إلى العصر الكربوني ، والوسطى وليس بها أية حفريات وغير معروفة العمر ، ثم العليا ونسبها إلى العصر الطباشيري المتأخر .

● وفي عام ١٩٠٧ ، وفي وصف لشلال النيل ذكر « بول » (Ball) ما يفيد اكتشافه لحفريات من العصر الطباشيري العلوى في الحجر الرملي النوبي وبعض الصخور الطينية التي تعلو الجرانيت والصخور المتحولة في المنطقة .

● وفي عام ١٩٠٩ اتفق « نيوتن » (Newton) مع « بول » في تقديره لعمر الحجر الرملي النوبي على أساس من تواجد حفريات مياه عذبة وبحرية .

• وفي الفترة ١٩٠٧ - ١٩١١ قرر « هوج » (Haug) عمريين مختلفين للأحجار الرملية النوبية في مصر :

— فتلك التي توجد في وادي نصب بسيناء، تتبع العصر الكربوني .
 — وتلك التي توجد في مصر العليا والنوبة، تتبع العصر الطباشيري .
 — ثم عاد « بلانكنهورن » (Blanckenhorn) في عام ١٩١٤ ليقرر في دراساته أن الأحجار الرملية النوبية، قد تمتد في عمرها من العصر الكمبري حتى العصر الطباشيري .

• كذلك عاد « بول » (Ball) في عام ١٩١٦ ليقرر ، أن الأحجار الرملية النوبية في غرب منتصف سيناء تتبع العصر الكربوني الأعلى وإن عمرها يقلد من العصر الكربوني المتأخر حتى العصر الطباشيري المبكر .

• كذلك اكتشف « بارثو » (Barthoux) في عام ١٩٢٦ تواجد حضور من نفس النوع النوبي ، تصل في سمكها إلى نحو ١٥٠ متراً عند منطقة أم بجمه بسيناء، وقدر لها عمراً — لا وجد بين طبقاتها من حفريات — بالعصر الكربوني .

— وفي عام ١٩٣١ ، قدم « كليان » (Kilian) بحثاً يستفاد منها تقديره لعمر الأحجار الرملية النوبية بالعصر الكربوني كذلك . وقال إنها في أسفلها قد تنتمي إلى العصر الأردوفيسي والديفوني المبكر .

– وفي عام ١٩٣٥ ، أطلق « ديسيو » (Desio) نفس الاسم (الأحجار الرملية النوبية) على تكوينات جيولوجية في ليبيا لأول مرة ، وأعطاهما عمرا كذلك يبلغ العصر الكربوني .

• وفي عام ١٩٣٥ كذلك ، وصف « ساندفورد » (Sandford) تكوينات حقب الحياة الوسطى في السودان . ولقد اقترح تغيير اسم أحجار النوبة الرملية باسم المجموعة النوبية ، لتكون أعم وأشمل في محتوياتها . ولكن « ساندفورد » يؤكد في أبحاثه على مناطق شمال غرب السودان أن مثل تلك الأحجار يبلغ عمرها حقب الحياة المتوسطة ومن المحتمل العصر الطباشيري العلوي . وفي نفس البحث يؤكد « ساند فورد » أن صفة (النوبي) ، يجب أن تقتصر على طبقات الأحجار الرملية التي تقع بغير توافق على كتل أخرى من الأحجار الرملية ، تكون أقدم من العصر الكربوني المتأخر .

ثم هو في عام ١٩٣٧ ، يقسم المجموعة النوبية التي اقترحها في شمال وسط أفريقيا إلى ثلاثة أقسام ، بل إنه افترض مشابقتها بصخور رملية أخرى في جنوب أفريقيا .

• وفي عام ١٩٣٧ ، وجد « كوفيليه » (Cuvillier) في وادي أبو الدرج في الصحراء الشرقية ، ما جعله يعتقد أن ترسيب الحجر الرمل النوبي قد بدأ قبل أفول حقب الحياة القديمة ، ثم هو استمر في حقب

الحياة الوسيطة . هذه الخلاصة بالإضافة إلى بحوث « بارثو » (١٩٢٦) وضعت الأساس لما يمكن أن يسمى بالتعريف المصرى للأحجار الرملية النوبية ، والذي خلاصته أن أى صخور رملية من هذا النوع ، هى صخور رملية نوبية أو أحجار رملية من النوع النوبى . وكل طبقة يؤرخ لها مثلا بالعصر الكربونى لابد أن تقع على أحجار رملية تسمى بالأحجار الرملية ، مما قبل العصر الكربونى . على حين أن ما يعلو طبقات العصر الكربونى من أحجار رملية يطلق عليها أحجار رملية نوبية مما بعد العصر الكربونى .

• كذلك فى عام ١٩٣٨ ، وصف « بيكارد » (Picard) ما يشبه الأحجار الرملية النوبية فى فلسطين ، فى الرواسب القارية للدرع العربى ، وقدر لها عمراً يمتد من عصر ما قبل الكامبرى حتى حقب الحياة الحديثة .

• وفى عام ١٩٤٦ ، قام نصرى شكرى ورشدى سعيد بدراسة عينات من منطقة عشم الجلالة على الشاطئ الغربى لخليج السويس ووجدوا أن كل التكوينات الحجرية النوبية الرملية ، لها تكوين معلى متناسق وواحد ، واقترحا أنها كانت رواسب هوائية فى حينها (eolian) جاءت من المنطقة ذاتها .

• كذلك فى عام ١٩٥٠ ، اعترف « فيورن » (Furon) فى كتابه « جيولوجية أفريقيا » بالتسمية (الأحجار الرملية النوبية) لإبقاء للعادة التى

اتبعت منذ أطلقها « روسيجر » ، وعلى أنها مجموعة من التكاوين الرملية يمتد عمرها من أوائل حقبة الحياة القديمة، وحتى أواخر العصر الطباشيري

ثم يقرر « فيورن » أن الجزء الأكبر من الأحجار الرملية النوبية في مصر إنما ينسب إلى العصر الطباشيري المبكر ، وأنه قد ترسب مباشرة فوق قاعدة الصخور المتبلورة كالجرانيت مثلا . . .

• وفي عام ١٩٥٢ ، عمل « دي لبارنت » (De Lapparent)

مقارنة بين تكوينات الأحجار الرملية النوبية في مصر والجزائر ومراكش . ولقد قرر هذا العالم بأن مشكلة تقدير عمر مثل هذه التكوينات — وإن تكن قد اتضحت على طول الشاطئ الشمالي لأفريقيا — إلا أنها تبدو كمشكلة علمية مرة أخرى كلما توغلنا إلى الجنوب في اتجاه السودان مثلا ، حيث تختفي كل الطبقات البحرية . ذلك لأنه كحقيقة واقعة ، أن الأحجار الرملية النوبية الحقيقية ، إنما يؤرخ لها اعتماداً على الحفريات البحرية التي قد توجد في طبقاتها ، أو بين طبقاتها . ثم يستطرد « دي لبارنت » يقول . . إن الرواسب التي تشكل الأحجار الرملية النوبية في مصر إنما تنتسب إلى فترة من فترات العصر الطباشيري (سينوميان) ، وذلك طبقاً للحفريات الفقارية التي وجدت في تكوين حجري رملي بسمك ٣٠٠ متر متبادل مع طفلة ويظهر عند الواحات البحرية ، وإن يكن قد

تسمى باسم تكوين البحرية ، وليس الحجر الرملي النوبي . ويذكر دى لبارنت ما يفيد وجود الأحجار الرملية النوبية في تشاد والكاميرون وأفريقيا الاستوائية وغيرها .. وجميعها يمتد عمرها من العصر الكربوني المبكر ، حتى العصر الجورى . وهذا يختلف تماماً مع تقديرات العمر للأحجار الرملية النوبية الحقيقية .

• وفي عام ١٩٥٢ أيضاً ، يقرر « تيرمير وتيرمير » (Termier and Termier) أنه ، من تونس إلى مصر ، وممتداً في خلال الجزيرة العربية وحتى لبنان ، توجد رواسب الأحجار الرملية النوبية .

• وفي عام ١٩٥٥ قرر (عطية) ، في تقرير له عن منطقة أسوان ، أن الأحجار الرملية النوبية يبلغ سمكها من ٧٠ إلى ١٢٢ متراً ، وأنها تتضمن ثلاث وحدات علوية ومتوسطة وسفلى ، ولكل منها صفاتها وسمكها الخاص .

• وفي عام ١٩٥٩ ، ثبت وجود صخور شبيهة في الأردن . وقدر لها عمراً بالعصر الطباشيرى

• وفي عام ١٩٥٩ ، كذلك ، سجل (أمين) معلومات جمعت من آبار الحفر عن البترول في الصحراء الغربية لمصر . ولاحظ أن في منطقة الواحات البحرية ، توجد طبقة حجر رملي بسمك ٧٧٢ متراً وتحتها طبقة أخرى من الحجر الرملي كذلك وبسمك ٧٢٢ متراً ، قدر البعض لها عمراً بالعصر الطباشيرى المبكر ، والطبقتان معاً تقعان على

أحجار رملية محدد تاريخها بالعصر الكمبرى . ولقد وجد أن تكوينات البحرية من هذا النوع توازى تاريخياً في تكوينها، الأحجار الرملية النوبية .

• في عام ١٩٦٠ ، نشرت أبحاث في ليبيا تؤكد نوع الأحجار الرملية النوبية في ليبيا وقدر لها عمراً بالعصر الطباشيرى السفلى .

• في عام ١٩٦٢ ، نشر (سعيد) كتابه عن جيولوجية مصر وفي ص ١٦ منه يورد جدولاً بتتابع الطبقات الجيولوجية المعروفة في مصر . ولقد وضع (سعيد) الطبقات المعروفة بالحجر الرملى النوبى ، في منتصف العصر الطباشيرى (تورينيان - سانتونيان) . وفي تلخيصه لجيولوجية وادى النيل ، نجده يصف بالتفصيل الأحجار الرملية النوبية حول أسوان وقدر لها سمكاً يتردد ما بين ٧٠ متراً ، ١٢٢ متراً . وكذلك قسمها إلى وحدات ثلاث علوية ومتوسطة وسفلى ، ولكل سمكها وصفاتها المميزة التى بنى عليها التقسيم . ولقد قرر الباحث بأن اسم (الحجر الرملى) (Nubia Sandstone) قد أعطى لطبقات من الحجر الرملى ، تنتشر باتساع في مصر السفلى والنوبة . كذلك قرر بأن الأحجار الرملية الحقيقية ، يقدر عمرها بالعصر الطباشيرى المتأخر ، وأن تلك التسمية يجب أن تتحدد وتمتص بالصخور التى لها نفس الصفات والحفريات المميزة لأحجار النوبة الرملية ، كما كان قد قرره « آركل » (Arkel) عام ١٩٥٦ . ويعتقد سعيد أن الأحجار الرملية النوبية تلك ، كانت

قد ترسبت في بحر ضحل متقدم ، غطى المنطقة كلها فيما بعد ، ومن هنا وجدت بعض الحفريات البحرية . كذلك ترسبت طبقات من الطفلة في البحيرات التي تكونت قبل أن يغطي البحر المنطقة كلها ، وبعدها .

• وحتى عام ١٩٦٦ ، كانت شركات البترول في ليبيا مستمرة في إصدار أبحاث تؤكد وجود محضور شبيهة بالحجر الرملي النوبي هناك ، وتعطيها عمراً يبلغ العصر الطباشيري تقريباً . . .

.. وبعده ..

فإن الأحجار الرملية النوبية التي تشكل الجبل الذي نمتت فيه معابد رمسيس الثاني الستة في بلاد النوبة، والتي نقلت ، تلك المعابد حديثاً ، إلى قمة من هذا النوع ، هي عبارة عن تكوين من التكوينات الجيولوجية التي تشكل التراب المصري . . وهو تكوين لا يزال الجدل العلمي الكبير يدور بشأنه . . وعلى ذكر التكوينات الجيولوجية للتراب المصري ، فإننا نعلم أن الزمن الجيولوجي أو المدى البعيد الذي تكونت فيه اليابسة في كل مكان قد قسم بغرض الدراسة والبحث إلى حقب وعصور . .

كل حقة وكل عصر يختص بحياة كانت تسوده وبرواسب كانت تضاف إلى اليابسة هنا أو هناك . وبالإشارة إلى مصر وترباتها الوطنية ، فلقد قدرّت البحوث الجيولوجية التي أجريت عليه ، أن الأقسام

الجيولوجية التي تميزه والتي أمكن وضعها على خريطة جيولوجية لمصر ،
إنما تشغل المساحات الآتية :

المساحة التقريبية بالكيلومتر مربع	العصر
١٦٥٠٠٠	العصر البليستوسيني والحديث
٧٠٠٠	• البليوسيني
١١٣٠٠٠	• الميوسيني
١٦٠٠٠	• الأوليجوسيني
٢٠٣٩٠٠	• البليوسيني والأيوسيني
١٣٠٠٠٠	• الطباشيري
٢٩٠٠٠٠	الأحجار الرملية النوية (الطباشيري)
٤٥٠	العصر الجوري
٥٠	• الترياسي (أو الثلاثي)
١٢٠٠	• الكربوني
٩٣٠٠٠	ما قبل العصر الكربوني (مخور نارية ومنتحولة)
١٠١٩٦٠٠	ويكون مجموع مساحة الجمهورية العربية المتحدة

يبقى بعد ذلك أن نورد هنا النظريات المختلفة والمتعددة، عن طريقة
تكوين تلك الطبقات المسماة بالصخور الرملية النوية . . ونذكر
منها :

١ - نظرية « ج . ك . والتر » في سنة ١٨٨٨ ، تقول : إن تلك الطبقات تكونت بفعل الرياح التي تسببت في تفتيتها ، ثم نقلتها من أماكن بعيدة ، ثم ترسبت في مناطق وجودها اليوم ، وتصلدت . .

٢ - نظرية « ج . بول » في سنة ١٩٠٧ ، تقول إن هذه الطبقات ترسبت في مياه ضحلة كانت بالمنطقة التي تشغلها اليوم هذه الصخور ، وفيما يشبه بحيرات كبيرة ، بعد أن نقلت إليها بواسطة أو بأخرى ، من وسائل النقل كالرياح والحجاري المائية ، أتت بها من أماكن جرانيتية بعيدة .

٣ - نظرية « ب . نيوتن » في سنة ١٩٠٩ ، تقول : إن المرجح أن هذه المنطقة - منطقة بلاد النوبة . . كانت مغطاة بالمياه العذبة في شبه بحيرات كبرى ثم نقلت إليها تلك الرواسب ، ثم ترسبت بعد أن ظلت عالقة بمياه تلك البحيرات فترة من الزمن . ويستدل على ذلك بوجود بعض بقايا حيوانات أو نباتات لاتعيش إلا في المياه العذبة .

٤ - نظرية « ج . بارتو » في سنة ١٩٢٢ ، تقول إن تلك التكوينات إنما اتخذت شكلها ذاك بفعل الريح عقب أن كانت المنطقة مغطاة كلها بالمياه ، ثم جفت وانحسرت عنها المياه .

٥ - نظرية « ج . كوفيليه » في سنة ١٩٣٠ ، تقول بما قال به « والتر » من أنها بفعل الرياح تكونت .

٦ - نظرية نصرى شكرى « في سنة ١٩٤٥ وتقول : إن تلك

الأحجار الرملية النوبية وتكويناتها ، شبيهة بالتكوينات ذات الطابع الخاص والتي تكونت في عصور عدة من الدهور الجيولوجية ، وأنها ليست مميزة لعصر بعينه . وهي عادة تمثل رواسب شواطئ البحار والمحيطات القديمة ، أو ما بعد الشاطئ أو في مياه مالحة ضحلة ، في مساحات من الأرض كانت آخذة في الانخفاض .

٧- في الفترة من عام ١٩٥٠ حتى ١٩٥٢ أيدت بعثات المساحة الجيولوجية الرأي الأخير مع بعض إضافات إليه . .

خلاصة القول في ذلك ، أنها رمال نتجت عن تأثيرات عوامل التعرية على مناطق جرانيتية ثم انتقلت ثم ترسبت ثم تصلدت فكانت الأحجار الرملية التي تسمت باسم النوبة فيما بعد .

وهكذا تكون الصخر الذي جرى من فوقه نهر النيل العظيم هادئاً منتظماً . . فهد لأقدم المدن في العالم أن تقوم على ضفافه . . وفي تلك المناطق بالذات . .

ولعلنا فيما مضى من صفحات قد تبيننا كيف تكون الصخر الذي اتخذ فيه معبد «أبوسمبل» وبقية معابد رمسيس الثاني في بلاد النوبة . .
هكذا تكون الصخر . .

• • •

وجرى النهر

كانت في الزمان الغابر عصور مطيرة غطت شمال أفريقية في
نهايات عصر الجليد . وبالأقطار ، كانت الصورة غيرها اليوم . . لم تكن
الصحراء الكبرى ، وإنما كانت أنهاراً وجناناً فيحاء . .

وفي مصر . . كان هناك نظام نهري ينبع من جبال البحر الأحمر .
وما كان النهر العظيم ، الممتد من الحبشة حتى البحر الأبيض قد التأم
شمله ، واجتمعت له النظم النهرية المختلفة في الحبشة والنوبة ومصر لتتأزر
في تكوين عظمته ولتجعل منه فيما بعد ، واحداً من أشهر أنهار العالم بعد
أن أصبح الكل في واحد . . وهو كذلك أطول أنهار العالم ، إذ يبلغ
طوله ٤١٤٥ ميلاً . كيف كان ذلك ؟ !

كانت الأمطار تنهمر في المنطقة غزيرة . . وكانت السيول من بعد
تجتمع ، تنحدر من المرتفعات بالطبيعة . وما كانت هناك في المنطقة مرتفعات
بأكثر مما يمتد على ساحل البحر الأحمر . . فتتحد السيول من فوقها
إذن ، بعضها إلى البحر الأحمر على الجانب الشرقي ، وبعضها إلى
المنخفضات والهضاب على الجانب الغربي . وهي في جريانها لم تكن
موحدة المجرى ، وإنما كان جريانها في نظم نهريّة أو وديان مستعرضة ،
تجري بالماء فوق حصير من رمال وزلط فتشق قنوات تمتلئ به من منابعه

المتدفقة من فوق سلاسل جبال البحر الأحمر ، وتتقابل فيما بينها القنوات والحداول ، مجمعة لشتات السيل المنحدر فوق الصخور المختلفة على طول الصحراء الشرقية ، من رملية حجرية إلى جرانيتية إلى جيرية إلى غير ذلك . . وللماء الجارى فعله فى كل نوع من هاتيك الصخور ، والذي يتوقف على نوعية الصخر ذاته . تتقابل الحداول لتشكّل النظام النهري القديم الذى أصبح فيما بعد ، ودياناً جافة ، يوم انحسر المطر وقل الترسيب وتغير المناخ . بتغير مساحات الجليد وانحساراته المتتالية .

قلنا من قبل ، إنه كان للبحر فوق أرض مصر غزوة أخيرة . امتدت فيها مياهه على شكل ذراع طويلة فوق أرض مصر ، ثم عاد البحر ينحسر انحساره الأخير . . . وامتد النظام النهري المصرى القديم ، حتى كان فى الفيوم مصبه . إذ أن منخفض الفيوم الذى كان الاعتقاد السائد أنه يمثل إحدى الواحات المنتشرة فى صحراء ليبيا ، لم يكن إلا منخفضاً شهد تكوين دلتا لنهر قديم — أقدم من نهر النيل عند ظهوره والثام شمله — فى عصر الأيوسين الأعلى ، وتكونت بذلك الراوسب المشتركة — نهريّة وبحريّة — فى تلك المنطقة . . ثم بعد ذلك تغيرت الأحوال المناخية وحدثت هزات أرضية نتجت عنها أخاديد عميقة ، كأخدود شغله من بعد ، البحر الأحمر ، كأخدود آخر امتد عبره وادى النيل بشكله الحالى . وأصبح النهر الحديث يضم كل الأنهار القديمة . . يضم الكل فى واحد . . وأصبح وادى النيل الحالى نهاية المطاف للأنهار القديمة .

ذلك معناه أن النيل كان من قبل أن يكون نهرا العظيم هذا . . نظما
 نهريه تشكل ثلاثة أنهر . . فكان هناك نهر الحبشة . . ونهر النوبة . .
 ونهر مصر . ولقد كانت تلك الأنهار على انفصال ، وغير متصلة
 ببعضها البعض . يستمد نهر الحبشة مياهه من بحيرة (أو كروي) ويستمد
 نهر النوبة مياهه من روافد تجلب إليه ما تجمع من مياه أمطار تسقط
 فوق ما يحيط بالمنطقة من جبال . . ثم نهر مصر ، وتجلب إليه المياه
 وديان تنحدر من جبال الصحراء الشرقية ولم تكن تحمل معها إلا الحصى
 والزلط والرمال .

ثم . . حدثت اضطرابات أرضية . . فصار الكل في واحد . . وصار
 ما يعرف اليوم بالنيل العظيم يمتد من الحبشة حتى شمال مصر لآلاف
 الأميال . . واستمرت الأمطار غزيرة فوق مرتفعات الحبشة تمده موسميًا
 بفيضانه الشهير المنتظم . . وتغيرت الظروف المناخية في النوبة وفي مصر ،
 فجفت الروافد التي كانت تمد النيل فيها . وكأنما أراد الله ذلك لخير
 بشر سوف يحيون على ضفافه فيما بعد ، ويقيمون على شطيه أقدم الحضارات .
 جفت الوديان في النوبة ومصر ، لأنها ما كانت تجلب إلا الحصى
 والزلط . . وبقيت المنابع في الحبشة لأنها تجلب الغرين والطمي والحصب
 أساس الزراعة . .

والنيل يأتي من ابعيد ، ينبع من بحيرة عظمى جديدة بأن تكون (أم
 النيل) ، ناجوها فقالوا . .

تباركت يا رب ، وشكراً لك يا أم النيل . .

أنجبت ، فأكرم بالمنجبة والنجيب . .

ولكنهم ظلموك في المشيب فأطلقوا عليك اسماً لاتمتين له برحماً
لقد نسبوك — لاسامحهم الله — إلى فيكتوريا ، وأنت منها ومن
أهلها براء . . ألا ما أجمل اسمك القديم « بحيرة أو كروي » ، الذي
عرفت به منذ عاش على ضفافك إنسان . .

ومنها — ومن أخواتها — يخرج النهر يمضي في رحلته الطويلة
ما بين الحبشة وما يسمى ببلاد النوبة ، التي تمتد في مصر والسودان من
الدكة إلى أسوان . يجري في أرض « واوات » كما كان يسميها المصريون
القدماء ، أو بلاد أثيوبيا كما أطلق عليها الإغريق والرومان . إنه
يجري هناك في بلاد النوبة ، أرض الذهب كما تعني الكلمة في لغة
الفراعين . .

وفي بلاد النوبة هذه ، عمرت السلالات النوبية أراضيها منذ عهد
قديم ، وكانوا دائماً على صلة بمصر في الشمال . وكانت القوافل المصرية
تسلك طريقها في بلاد النوبة إلى الجنوب في طلب الذهب والأبنوس
والصمغ وجلود الحيوان ، وتحمل إليها الكثير من صناعات مصر المعروفة
حينذاك . وفي عهد الدولة الوسطى استطاع ملوكها الأقوياء أن يتسعوا
بمصر نحو الجنوب ، فكانت بذلك بلاد النوبة جزءاً من الإمبراطورية

المصرية المترامية الأطراف يديرها حاكم يسمونه نائب الملك إظهاراً لأهمية هذا الإقليم . ثم مع الزمن تضعف السلطة المركزية في الشمال ، فتظهر أسرة نوبية تؤسس ملكاً عريضاً حول (نباتا) ، ويستطيع أحد ملوكها وهو « بعنخي » في سنة ٧٥٠ ق . م ، أن ييسط نفوذه في الشمال ، وأن ينشئ في مصر أسرة حاكمة ، هي المعروفة في التاريخ الفرعوني باسم الأسرة الخامسة والعشرين . ويتوحد وادي النيل من البحر المتوسط إلى جنوبي الخرطوم ، لأول مرة في التاريخ . وتنتشر حضارة الفراعنة متوغلة في الجنوب ويسمى « بعنخي » نفسه (جالب السلام إلى البلدين ، ملك الشمال والجنوب ، ابن الشمس ، صاحب التيجان) .

تلك هي بلاد النوبة ، ثم يتركها النيل استكمالاً لرحلته إلى مصر ابتداء من أسوان وحتى الشمال حيث يتخذ دلتاه . . ولكنه قبل أن يتخذ دلتاه الحالية وشكله الحالي ، وجد كما قلنا من قبل مع الزمن طريقه في منخفض الفيوم ، وكون بحيرة كبيرة كانت تعلو نحو تسعين متراً ، عن منسوب بحيرة قارون الحالية . وقد سجلت بحيرة الفيوم القديمة هذا الاتصال المباشر بنهر النيل القديم . فهي كبحيرة ، يغذيها النهر في الفيضان ، وهي تغذيه في أيام التحاريق . وبذلك تابعت بحيرة الفيوم النهر ، في تعميق مجراه .

وشاءت إرادة الله أن توجد يانيل .

وشاءت إرادة الله يانيل ، أن تخلق كل ما خلقت على ضفتيك في

مصر . .

فكيف كان ذلك ١٢

لقد كان ذلك بما حمل النهر من غرين بعد أن اتخذ سبيله المنتظم على ما تراه اليوم إلى البحر الأبيض مصباً . وعند منتصف الصيف من كل عام ، يبدأ الفيضان وتغطي مياه النهر بعد أن تبلغ أرض مصر في رحلة طويلة مثيرة — كل منبسطة من الأرض على جانبيه .. وكذلك ، ذلك الشريط الضيق على جانبي النيل عند النوبة وما بعدها ، وفي الشمال كانت الأحراش والمستنقعات . . والمياه في فيضاتها تكون محملة بأحماؤها من غرين وطمى ، أتى به النهر بعد أن عدل متابعه فصارت في المرتفعات الحبشية . وفي نهاية نحو مائة يوم تقريباً تعود المياه تنحسر عن منبسطة الأرض في مصر ، بلخفاف الأمطار فوق جبال الحبشة . وهي إذ تفعل ، إنما تترك فوق بعض رمال الصحراء من حول النيل في مصر ، طبقة رقيقة ومستوية من طين أسود اللون . تلك التربة السوداء ذات الخصب ، هي التي أمدت المصريين بالغذاء منذ عصور مفرقة في القدم . عصور أبعد من العصر التاريخي الذي سجله الإنسان ، ومنذ ما يزيد على سبعة آلاف سنة . وعندما كانت أوروبا لا تزال أرض الصيادين

المتوحشين ، كان الإنسان على ضفاف النيل يخطو أولى خطواته نحو دنيا الزراعة نحو إنتاج القوت وما ترتب على ذلك من حضارة ومشاكل اجتماعية ، هي رفيقة الإنسان منذ ذاك الحين وحتى اليوم ، وإلى آت من الزمان قريب ، أو بعيد .

وحقت بذلك مناجاة النيل . من بعد مناجاة الخالق . .

تباركت يارب ، وحمداً لك يا نيل ..

تباركت يارب ، ما أكرمك وما أعظم آلامك . .

أردت لمصر الخلود فأجريت لها من أقصى الأرض الكوثر الفيض .
وحمداً لك يا نيل ، ما أنبلك وما أوفاك ..

قطعت المسافات الطوال ، لتجعل من مصر جنة وارفة الظلال ..

ولعل ذلك أيضاً ما أوحى « لهيرودوت » بكلمته الخالدة .. (مصر هبة النيل . .

• • •

وكان النيل هو المعلم الأول لاجدال ، حيث أوحى إلى ساكني جروفه أنه من الأوفق أن يقيموا متجاورين . ومن ثم بدأت الجماعات المستقرة ، وهنا ، تحتم الضرورة أن يعملوا وفقاً لخطة مدروسة ، وأن يكون هناك قادة ينظمون عمل أولئك الذين يزرعون ويحرثون . . وهكذا ولدت أول حكومة على ضفاف النيل . ذلك أنه ، ما إن عرف الإنسان

الزراعة ، وهذا في مكانه وترك الصيد والرعى والتجوال في الغابات والبادى ، حتى شرع يؤسس مؤسسات الحضارة لأن وجوده مستقراً في مكان ، يجعله في حاجة إلى حكومة تنظم عمله وتحرس حقله ، وتحكم في مشاكله ، وتمنع اعتداء غيره وتدافع عن ممتلكاته . كذلك أضحى في حاجة إلى بيت ثابت ، استقرت فيه الأسرة وترابطت .

وكما أن الطبيعة قد أنعمت على المصرى القديم بالنيل . . أو أن الإنسان هجر البرارى والصحارى إلى حيث النهر ، فتعلم منه الزراعة وتفقه في علاقة الماء بالزرع ، كذلك فإن المناخ الجاف من حول النهر ، علمه وأوحى إليه بفكرة التخصيب . . والجلود . . والدين . .

تباركت يا نيل ، علمت المصرى القديم أشياء أفادته في زراعته وفي دياناته وفي شتى أمور مدنيته وحضارته . . وكانت هذه أولى المدنيات وأسس الحضارات، في العالم . ولقد كان هناك مع تقدم الزمن — من يقيمون في الشمال ، وأطلق عليهم اسم سكان مصر السفلى ، لأنهم يعيشون في منطقة تقع إلى الأسفل من مجرى النهر . وكان هناك كذلك من يعيشون في الجنوب ، سموا بسكان مصر العليا لأنهم يعيشون في منطقة في أعلى النهر .

ولا كانت السيطرة على النهر في أرض الدلتا عند المصب أصعب من مثلها عند الجنوب ، تطورت مصر السفلى وتقدمت واستطاعت

أن تغزو مصر العليا حتى توحدت جميعاً ، تحت حكم واحد في بداية عصر الأسرات . وخضع للحاكم آنذاك بشر كثير فرض عليهم الضرائب . وهي فريضة تؤخذ من ثمار الأرض وما يزرعون . وبداهة ، أنه كلما زاد المحصول ، زادت جملة حصيلة الضرائب .

ولهذا كان من الطبيعي أن يعنى الحاكم بزيادة غلات الأرض من الحبوب ، وهكذا بدأ الاهتمام الرسمى بالزراعة ومتطلباتها .

النهر هو المعلم لامشاحة . . ولعل من الممكن أن نتتبع دور النهر . . نهر النيل — فى الحضارة البشرية طراً ، من استقرائنا لعلامات بارزات على ذلك الطريق ، علمها للمصريين القدماء ، وأوحى بها إليهم :

— فالنهر — علمهم كيف يتوقعون الفيضان فراقبوا السماء والنجوم وأوجدوا التقويم ، فكان الفلك .

وعلمهم كيف يقيسون الوقت ، ومن ثم استطاعوا تسجيل الحوادث بأى شكل من الأشكال . . وتطور ذلك حتى كانت الكتابة .

— وعلمهم كيف يتخلدون من نبات البردى والبوص فى أحراش النيل أوراقاً وأقلاماً . .

— وعلمهم أصول المساحة والحساب ليقيسوا لكل زارع حدود أرضه بعد أن تغمرها مياه الفيضان ، وليحسبوا عدد القرابين وما وفد منها على المعابد .

— وعلمهم كيف يتخذون من طينه ما يصنعون به قوالب الطوب لبناء بيوتهم .

— وعلمهم كيف يتحرون المحراث والمعزقة ، وكيف يتخذون من طميه ما يصنعون به أدواتهم الفخارية .. ثم نسجوا القماش وديغوا الجلود .. علمهم الكثير والكثير .. وأفاض عليهم الخير الوفير .. فتفرغ منهم من تفرغ لأعمال المدنية والحضارة الأولى .. وما الحضارة إلا نتاج للتفرغ .

وتعود هنا فنقول ، إن المدنيات أو الحضارات الأولى في تاريخ العالم ، والحضارة الفبرعونية من أقدمها يقيناً ، قد نشأت حيثما كانت في وديان الأنهار . إذ كانت تعتمد في أحسن حالاتها ، على السيطرة التي تمت لمنشيتها والقائمين بها ، على عامل مادي في بيئتها الطبيعية . ذلك العامل ، هو الماء الدائم الذي تزخر به الأنهار الكبرى .

إن أهم ما بين الهمجية والمدنية من فروق ، هو أن الناس في الحالة الأولى يعيشون في أسلوب يكرهون عليه . أما في الحالة الثانية ، فإنهم يعيشون كما يريدون أن يعيشوا . وليس الفرق بين الحالتين على حد قول الجغرافي الألماني « زيتل » (Zittel) في درجة علاقتهم بالطبيعة ، بل هو في نوع هذه العلاقة . وفي وسعنا أن نضف الثقافة بوجه عام بأنها حالة الإنسان حين يتحرر من سيطرة الطبيعة . ولا نعني بذلك ، التحرر

الكامل من هذه السيطرة ، بل نعتى بها أن يتفاعل الإنسان والطبيعة تفاعلاً أوسع نطاقاً ، وأشد تنوعاً ، وأكثر استمراراً . .

ولقد كانت هناك ثلاث مراحل في هيمنة الإنسان على الأرض التي يعيش عليها ، والتي يجد من نتائجها حاجته من القوت والراحة .

في الأولى : يترك الأرض كما يجدها ويكتفى بما تنتجه من ثمار من غرس الطبيعة لا من غرس يده .

وفي الثانية : يغير معالم الأرض بحفرها وحرثها ، ثم يختار من النباتات البرية الأنواع التي يؤثرها لأغراضه .

وفي الثالثة : ينقب الإنسان فيما تحت السطح ، ويتخذ من الموارد المعدنية عتاداً له وعدة .

والحق يقال من بعد ، إن المدنية هبة الماء حيث كانت وحيث كان . فبالماء كانت الزراعة ، وبالزراعة كانت الوفرة التي أتاحت الحياة لعدد من السكان ، وزيادة على المشتغلين بالزراعة منهم . . وذلك ما مكن لوجود عناصر من البشر لاصلة لها بالزراعة ، ولكن منهم الفنان والمهندس والعامل والعالم ، وكل أولئك ساهموا في بناء المعابد وخلدوا الحضارة : مضيئاً مع النهر والإنسان من حوله نتلمس ما أفاء النهر به على من اجتذبهم إليه من البشر . ولكن من أين جاء البشر ؟ !

لقد قالوا . . جاء الناس إلى النهر مهاجرين من الأدغال أو من

الصحراء ، أو فراراً أمام ظروف قست عليهم فبحثوا عن الأنسب ..
ويبقى بعد ذلك تساؤل قائم .. ولكن من أين ببدء حياة الإنسان ؟ .

جاء الإنسان إلى النهر ، ليحيا من حول المياه العذبة ، إذ لا حياة بدونها إطلاقاً .. جاء الإنسان مهاجراً من أى مكان ، ولكن من أين جاء أصلاً ؟ ذلك سؤال قد يتطور بالسائل حتى يسأل ، وما الحياة ذاتها ؟ ولقد يجرنا ذلك إلى استطراد يخرج بنا عن مجال بحثنا هذا ، ولكن لعلنا إن نحن تناولناه في شيء من تركيز وإيجاز ، فنقول :

بدأت الحياة يوماً ما .. وبطريقة ما .. وتطورت ابتداءً من الخلية الأولى .. وقصة الخلية الأولى هي قصة الحياة ذاتها ، حتى في الإنسان قمة التطور .. وكما هي في الحيوانات من أدناها إلى أرقاها ، وكذلك في النبات . وبدأت الخلية تتطور حتى تركت لنا فيما تلامن زمان ، حفريات تروي قصة تتابع الحياة على الأرض . ولكي نقول الحياة على انطلاق معناها ، يجب أن نعرف ما هي العناصر الأساسية في قصة الحياة ببدء .. تلك الحياة التي نشأت وتكونت من شواهد غير مباشرة ، حدثت مبكراً جداً عن الزمن الذي أمكن لإنسان اليوم المتحضر ، أن يعثر بين رواسبه على حفريات محفوظة . وعموماً ، فإنه يمكن تلخيص تلك الأساسيات الضرورية للحياة فيما يلي :

١ - المركبات الكربونية البسيطة ، ومصدرها الغلاف الجوى الذى

كان على حد قول بعض النظريات ، في ابتدائه مشعباً بغاز ثاني أكسيد الكربون وبدرجة كبيرة . ولقد أمكن للعلماء اليوم تحضير مركبات لأحماض أمينية معقدة من مركبات أخرى كربونية بسيطة . وهم يفترضون اليوم أن مثل تلك المركبات الأمينية ، إنما هي كانت الخطوة الأساسية في ظهور الحياة ، أول ما ظهرت . ثم كانت الأنزيمات والبروتوبلازم وعوامل الوراثة ، فاستمرت الحياة وانتشرت على الأرض .

٢ — ظهر بعد ذلك التمثيل الضوئي وأصبح العامل الأساسي والرئيسي في إنتاج الغذاء والقوت . وهو يعتبر القوة الميكانيكية الوحيدة ، في هذا الخصوص ، لكل ما على الكوكب من أحياء . ويتعاون الخلايا المفردة ، نشأت النباتات والحيوانات الراقية . وبدأت منذ ذلك ، أهرامات الغذاء تتكون تلقائياً ، في كل الظروف المواتية والممكنة .

٣ — بمجرد أن تكونت الحياة ، وكان التمثيل الضوئي الذي يستفيد بمصدر للطاقة لا ينفذ ، ألا هو أشعة الشمس ، بمجرد أن كان ذلك ، كان انتشار الحياة . وكان الانتشار يوماً ذلك يصحبه الهدوء والسلام والتعايش بين كل المخلوقات .

٤ — كان ذلك عندما كان الخط البياني لمصادر الغذاء آخذاً في الصعود ، ولا يدانيه خط انتشار الأحياء . وبمجرد أن بدأ خط انتشار الأحياء يلاحق خط الغذاء على لوحة القدر ، فيلحق به ، بل يكاد يسبقه ، بدأت منذئذ المنافسة والصراع على وجه الأرض وأصبح

واضحاً . أن لابقاء إلا للأقوى والأصلح . وسارت الأحياء بذلك الصراع في مسالك التطور ، من رقى إلى أرقى ، حتى كان الإنسان متربعا على القمة اليوم بما يتمتع به من عقل وفهم وإدراك وتخيل منظم .

وهكذا عدلت الحياة نفسها ، وطورت أمورها وسارت ولم تتوقف بإذن خالقها ومشيئته ، ومازالت تسير حتى أصبح اليوم وعلى مدار العالم كله ، ما يزيد على المليون من أنواع المخلوقات الحية ، من نبات وحيوان على وجه المعمورة . وتمتلك العناصر الحية مرونة مكنتها في كثير من الأحيان ، من أن تهجر وتنتشر متجنبة بذلك ظروفاً قهرية للطبيعة ، أو بحثاً وراء ظروف أنسب . والعمليات الجيولوجية والطبيعية الموجودة منذ الأبد ، وإلى الأبد ، مسئولة عن كل تغير ينتاب سطح الأرض سواء بالصالح أو بالطالح . ولذلك ، فهي مسئولة إلى حد ما عن فتح طرق الهجرة لتلك الأحياء ، بين مساحات الأرض الشاسعة والمحيطات المهولة . تلك المسالك هي ما يخترقها النباتات أو الحيوان يوم تقسو الظروف ، إلى أجواء أخرى أنسب ، يكون في مكنة الأحياء أن تتأقلم فيها ، أو هي على العكس تنقرض وتتلاشى تماماً . . . ودون رجعة إذا هي فشلت .

إذن ، فتغير الظروف على الأرض كان دافعاً لعجلة التطور والتقدم إلى أنواع أحسن وأنسب . وكأنما الطبيعة — ولغرض بعيد الهدف — كانت تحاول أن ترتب الحيوان بجوهر العقل فيه ، وهو ما يخالف تماماً تضخم الجسم وتكثل البدن . . . وبعد أن جاء الإنسان كانت هناك شواهد تبين

أن الغزو أو الهجرة ، ربما يتأتى دون دوافع قهرية من الطبيعة ، وإنما بغرض البحث والاستكشاف ، لأماكن جديدة لم تستعمر . ومثل على ذلك ، ما فعله الإنسان الحديث لأماكن في الدنيا كانت تفتقر إليه ، كاستراليا مثلاً . . .

وبوجه عام ، فإن البحث في الحفريات القديمة يؤدي إلى نتائج يستشف منها بأن البقاء على الجنس والنجاح في الصراع من أجل الحياة وعدم الانقراض ، إنما يتوقف على الآتى :

١ - النجاح في الاستحواذ على مصادر وفيرة للطعام بأية وسيلة .

٢ - سهولة التحرك والهجرة إذا ما حتمت الظروف ذلك ، بحثاً أو هجرة .

٣ - التناسل بكثرة تقاوم الهلاك ، أو العناية بالولائد .

٤ - المقلرة على حماية النفس والصفار ، ضد أهوال الطبيعة والأعداء . . .

وفي واقع الأمر . فإن مسرح الحياة كان وما زال غنياً بالوجوه الجديدة التي تستطيع الظهور على خشبته . ولكن القليل جداً منها ، هو ما يطلب للقيام بدور في ملهاة الحياة . . . وإذا ما نجح في اختبارات الحياة والطبيعة ، كتب له البقاء على جنسه والقيام بدوره في الدراما العنيفة التي لم تم فصولاً بعد . . .

والإنسان .. أحد تلك الخلائق . وإن يكن تميز عليها بقله وبصيرته ، فهو في رأى العلم لا يعدو أن يكون ظاهرة مناخية ليس إلا . ظاهرة حتمها التطور والتأقلم تغلباً على ظروف مناخية وطبيعية . نوهم يقولون إن للإنسان أسلافاً قد تكون من القرود أو الشمبانزى أو الغوريلا أو الليمور ، وصلت في نهاية تطور إحداها إلى إنسان اليوم . وإن تلك الظروف هي تتابع غزوات الجليد — في عصور الجليد — في غزو وإدبار ، على سطح اليابسة والماء معاً . كانت نتيجة ذلك ، ظهور أنواع متطورة من حيوانات قريبة الشبه بالإنسان ، هي أسلافه . ثم انتشرت تلك الكائنات الجديدة — الإنسان — خلال العالم القديم .

ومن خلال علوم الجيولوجيا والحفريات القديمة ، والأجناس وما إليها — تماماً كأي حيوان أو نبات — أمكن التأريخ للإنسان منذ كان ، وقبل أن يكون ، وإلقاء ضوء كشاف على ماضيه . واحتمالات نشأته الأولى ، ثم تطوره حتى كان إنسان اليوم . وعلى إشعاعات من تلك العلوم ، أمكن تتبع بقايا حفريات الإنسان الأول وأسلافه ، في مناطق متعددة من أركان الدنيا . . منها جاوا والصين وألمانيا وتنجانيقا . . وبلاد النوبة والصحارى المصرية ، وغيرها . . هنا وهناك في تلك الأماكن ، أمكن للبحث العلمى ، أن يستنتق بقايا وجدت وحفريات اكتشفت ، وأن يفهم عنها أن ذلك المخلوق الذى أطلقوا عليه سلف الإنسان ، وإن يكن لم يتحدد بعد على وجه من اليقين ، بل ما زال حلقة مفقودة — قد أثبت

تكيفه وتأقلمه باعتياده على حياة الجليد في ظروفها وأحوالها العامة الأولى ، حين دهمته .. فنجا من أن ينقرض .. وتطور إدراكا وعقلا ، فيما بعد .

ولقد أمكن بالدراسة تتبع ظهور الإنسان في فترة انحسار الجليد الثانية على الأرض . ثم انتشاره في أوائل عصر البليستوسين . وتطور بازدياد في حجم مخه ، لا في شكله العام ، فكان إنسان « كرومانيون » الذي كان مخلوقاً أكثر تطوراً مما قبله وأوفر رقياً ، حتى يقال إنه صنع معظم أسس الاكتشافات التي كانت من بعد ، شروفاً على الطريق تضيء ، وعلامات جد واضحة ومميزة عندما بدأت الأشعة من وراء الأفق المظلم ، تنبئ عن مقدم فجر التاريخ المرتقب في حياة الأرض ..

• • •

وإننا لتحدث عن الزمان وما كان فيه ، وياحبذا لو أننا تعرفنا كيف يقاس ذلك الزمان فيما قبل التاريخ .. وكيف يرجع العلماء إلى الوراء يضربون في أحشائه ، ويستخرجون حقائقه .. يستعينون على ذلك لاشك بمقاييس زمنية اتخذوها ، واتفقوا عليها ، ولعل من أحدثها وأهمها ذلك الذي يسمى بالكربون (١٤) .

ويعتبر الكربون (١٤) — تمييزاً له عن الكربون (١٢) المسمى بمقدار وزنه الذري ، أحدث المقاييس العلمية التي تقاس بها عصور ما قبل التاريخ . ولقد وُجد العالم الأمريكي « ويلارد لبي » (Willard Libby)

صاحب الأبحاث الجادة في الطبيعيات الذرية ، أن نصف ذرات هذا الكربون تتحلل في الأجسام الحية ، خلال خمسة آلاف وخمسة مائة وثمان وستين سنة ، يعمل فيها حساب : فرق التقدير بنحو ثلاثين سنة بالزيادة أو بالنقصان . فإذا جمعت بقايا العظام أو الفحم الحجري ، كان من الممكن حساب أو تقدير ما بها من كربون (١٤) مع تقدير الزمن الذي انقضت فيه حياة الكائن الحي الذي تحلقت عنه تلك البقايا ، على حسب المقدار المتحلل من ذلك الكربون . فإذا كان هذا المقدار نصفاً ، فقد مات ذاك الكائن الحي قبل خمسة آلاف وخمسة مائة وثمان وستين سنة . وإذا كان ذلك المقدار ربعاً ، فقد انتهت حياته قبل نحو أحد عشر ألفاً ومائة وست وثلاثين سنة . ويزيد عدد القرون ، كلما نقصت نسبة البقية من الكربون (١٤) بالمقابلة بينه وبين الكربون (١٢) . ومع ذلك الفارق القليل الذي يحسب فيه الحساب لخطأ التقدير .

بذلك ، تمكن الإنسان الحديث أن يقفل راجعاً في تاريخ الإنسان القديم إلى ألوف القرون بدلا من العشرات أو الآحاد . ووضع علماء الطبقات والحفائر مقادير الأعمار المتطاولة لكل طبقة من الطبقات الأرضية وجدت فيها بقايا الأجسام البشرية . وقدروا للطبقة الحجرية ثلاثة أدوار بين عليا ووسطى وسفلى ، يتراوح تاريخها بين خمسة وسبعين ألف سنة ، وستة آلاف سنة . وتنسب إلى الطبقة العليا بقايا الإنسان التي وجدت

في الأقاليم الغربية من القارة الأوربية وإلى الطبقة الوسطى بقايا الإنسان التي وجدت في أواسط القارة وأقدم من هذا بقايا الإنسان التي وجدت في القارة الآسيوية بين الصين وبلاد الملايا . ومثلها في القدم أو أقدم منها ، بقايا الإنسان في أقاليم الجنوب الأفريقي .

ومن أحدث البقايا الإنسانية التي وجدت في القارة الإفريقية في سبيل البحث عن أسلاف الإنسان ، جمجمة عثر عليها « ليكي » (Lecky) عام ١٩٥٩ . ولقد سمي المكتشف هذا الإنسان ، باسم علمي معناه الإنسان الزنجي (Zinjanthropus) ولقبوه بلقب كاسر الجوز لضخامة فكه وضروسه ويقدرون تاريخه بنحو ستمائة ألف سنة على حسب قياس الزمن ، بمقاييسه المستحدثة والمتعددة . ولئن كانت البشرية موزعة في القدم بهذا الشكل ، إلا أنه ليس من المحقق أن يوغل التاريخ في القدم إلى كل تلك الألوف من السنين . كذلك فإنه من المحقق أن الإنسان القديم الذي دلت عليه تلك البقايا ، كان يستخدم الآلات الحجرية ، ويستعين في كفاح أعدائه من الحيوانات الضارية بنصيب من الذكاء لم يكن معهوداً في حيوان منها . فهو في أقدم عهده مميز بالعقل والنطق ، وهما صفتان إنسانيتان لائنفصلان عن استخدام الآلة ولاعن الخاصية المميزة للحيوان الناطق ، من اعتدال القامة ومطاوعة اليد للإرادة في حالات المشي والوقوف . ولولا ذلك ، لما استطاع الإنسان

فما بعد - أن يستخدم السلاح للصيد والدفاع ، والإزميل للنحت والإبداع .

أما الإنسان في مجتمعات الحضارة ، فلم ينكشف بعد أثر يدل على تاريخ له قبل عشرة آلاف سنة أو نحوها . ونعني بإنسان الحضارة ، ذلك الإنسان الذي عرف الشريعة ونظام المعاملة ، وسخر الحيوان كما سخر الطبيعة لمصلحه المشتركة . ولقد وجدت في وادي النيل آثار الإنسان المقيم والمستقر ، والذي كان يستخدم الأدوات الحجرية ويعول على محاصيل الأرض بعد معرفته للزراعة في تدير طعامه وأسباب معيشته . ولكن المتفق عليه أن هذا الإنسان الأول في وادي النيل ، لم يكن يعرف الكتابة ، ولم تكن نقوشه على الحجر من قبيل الرموز المصطلح عليها لنقل الأفكار وتسجيل الوقائع ، ولكنها أقرب إلى الطلاسم السحرية أو إلى أشكال الزينة ، وأنها - على هذا - لتعتبر مقدمة لازمة لنشأة الحياة الاجتماعية في أطوار الثقافة والحضارة . . وكانت أول حضارة هي الحضارة المصرية . . ولقد كتبت (برى) استقراء الحضارات المختلفة التي ظهرت في العالم ، ابتداء من مصر وشرقاً إلى سوريا فالعراق فالهند فالصين فجنوب آسيا فاستراليا فأمريكا ، واستطاع أن يستخرج منها تلك السمات المصرية التي اتسم بها التاريخ المصري القديم ، من لدن فراعنة الأسرة الخامسة . وهو في استقراءه ذلك ، يثبت أن التدرج الجغرافي في اتجاه الحضارة المصرية إلى الشرق ، يسير مع التدرج الزمني . فأخيراً ظهر



نفرقتى - ومعناها الجميلة أيضاً أو جميلة الجميلات
لقد عكس الفنان المصرى القديم فيها ، الصورة الإنسانية العابرة
والوجه البشرى الزائل فوق الأبعاد الثلاثة المعروفة ، كما يقول (ألبيركامى) . .
كذلك ترك لنا النحات المصرى القديم ، فيها تمثال الجمال ليمتلئ من
أراد فى محيا المرأة وجسدها ، وذلك المنصر الإلهى الخالد الذى يبقى منها
بعد انحلال المادة وفناء الجسم . . . كذلك ألبيها ثوباً شفافاً تدر فيه
أنوثها كأنها حلم من ضباب . . أليست جميلة الجميلات ؟ هكذا
أسوها . . وانظر إليها ثانية .

من آثار الثقافة المصرية القديمة مثلا ، كان في أمريكا ، أنأى الأقاليم
عن مصر .

وحضارة مصر التي فشت في العالم ، هي حضارة الأسرة الخامسة .
وهي الأسرة التي ظهرت فيها عبارة « رع » إله الشمس على عبادة « آمون » .
وانقسمت الأمة المصرية قسمين : إمارة دينية ووزارة سياسية .

وإننا لو ذهبنا إلى أبعد ما استطاع إنسان اليوم التعرف عليه في
الحضارات القديمة ، وهو العصر الحجري القديم ، لأدركنا أن الإنسان
البدائي قد أنجز الكثير باستخدام الذكاء البشري الفطري ، للسيطرة على
الطبيعة عن طريق استخدام الأدوات والمعدات المختلفة . استطاع ذلك
جنباً إلى جنب — مع تقدم التقاليد والطقوس وأعمال السحر ، التي تطورت
إلى الأديان المختلفة ، والتي قامت بهدف أن يحافظ الإنسان على المكاسب
التي حققها . . وسيلا إلى سيطرة الكهان ورجال المعابد المختلفة .

وسنذهب هنا معاً ، في رحلة إلى الماضي ، مع ركب التاريخ ،
لنرى مراحل الحضارة القديمة الفرعونية بالذات ، والدور الذي لعبه
النيل — معلماً — منذ اكتشفت الزراعة على جانبيه ولأول مرة في بلاد
النوبة ، على ما تحقق منه الكثيرون اليوم . . وقدروا له زماناً تفصلنا عنه
سبعة آلاف سنة أو نحوها . . وسوف نتبع ذلك الإطار الذي قدمه
«جوردون تشايلد» والترم به العالم الكبير «ب . برنال» . وفي رحلتنا هذه
ستتميز مراحل أساسية هي :

أبو سبيل

أولاً : العصر الحجري القديم (من حوالي ١٠٠٠٠ سنة ق . م .
إلى ٥٠٠٠ سنة ق . م)

ثانياً : العصر الحجري الحديث (من ٥٠٠٠ سنة ق . م إلى
٣٠٠٠ سنة ق . م)

ثالثاً : العصر البرونزي (من ٣٠٠٠ سنة ق . م . إلى ١٢٠٠
سنة ق . م) .

رابعاً : العصر الحديدي الأول (من ١٢٠٠ سنة ق . م إلى
حوالي ٧٠٠ سنة ق . م)

ويقوم بهذا التقسيم عموماً . على أساس التمييز بين هاتيك المراحل
على أساس خواص قوى الإنتاج عامة أو على أساس المعادن السائدة .
ولقد كانت الزراعة من أهم العوامل التي حفزت إلى الكشف عنها
واستخدامها بداءة ، ثم كانت حتمية للحضارة ومؤسساتها كبناء المعابد
والتماثيل وعدد الحرب والقتال . . وغير ذلك .

* * *

وبرغم ما قطعنا في التاريخ وما قبل التاريخ في الصفحات الماضية
أشواطاً بعيدة ، إلا أن التساؤل الذي بدأنا به — وهو من أين أتى البشر
إلى وادي النيل أصلاً — لم يزل قائماً . . وبداءة نؤكد ، أن كل ما يقال
هنا ، بهذا الشأن ، هو تخمين علمي وافتراضات ليس إلا . . لم يقل
العلم فيها قولته الثابتة بعد .

ولتعد الآن بالزمن إلى الوراثة مرة أخرى ، ترى أولئك الذين صنعوا هذا كله ، عندما جاء هؤلاء الناس لأول مرة إلى النهر ، ذلك لأنهم على حد قول بعض العلماء ، كانوا مهاجرين نزلوا أرض النهر من مناطق أخرى . .

كان هذا في نهاية عصر الجليد ، وقد تغطي شمال أوروبا بالثلوج . وكان شمال أفريقيا ممتلئاً بالخضرة ، وأرضه مغطاة بالحشائش ، والأمطار غزيرة . وعلى حين كان الماموث (Mammoth) وأسلاف الفيل والخرتيت والرتة (Reindeer) ترى في جنوب إنجلترا وفرنسا ، كان شمال أفريقيا جنة تعيش فيها وتطعم قطعاناً كبيرة من الظباء . . وبذلك كانت منطقة واسعة للصيد . . قصدها الصيادون والرعاة .

ثم . . انتهى عصر الجليد في أوروبا . . فجفت الأمطار في شمال أفريقيا وبدأ في الأفق تغير خفيف . . زحفت صفرة الصحراء الكالحة فغطت المنطقة . . وواجه الصيادون تحدياً مرعباً . . الموت أو الهجرة . . وهاجر البعض شمالاً . . وهاجر البعض جنوباً . . كذلك اتجهت أنظار بعضهم إلى الشرق ، فلقد كانوا يعرفون أن في الشرق ، أرضاً مفضلة جاءهم صيادوهم من قبل ، بأنبأها . . ورحلوا إليها . . إلى أرض النيل . . فماذا وجدوا ؟

كانت هناك رقعة متسعة تعلوها نباتات نامية ، ولكنها ليست أرض المروج النافعة .

كانت مستنقعات مقفرة موحشة ، تعلوها سحبيات من البعوض .

ذلك هو النيل عند مصبه أوفيا أصبح بعد ذلك دلتاه ، عبارة عن
 حرشى لاشكل له ، مستنقع واسع يضيغ فيه مجرى النهر ، غابة
 من البوص والحشائش ، التى ترتفع لأكثر من خمس عشرة قدماً
 التماسيح المخيفة وسطها متربصة .

لم يكن من سبيل لينكص هؤلاء المهاجرون على أعقابهم .
 النيل بعيداً على تلك الأحراش إلى حيث استطاعوا أن يستنبتوا
 وعرفوا الزراعة على جانبيه عند النوبة ، منذ قرابة السبعة آلاف ،
 ثم كانت الحضارة الأولى . .

ذاك قول ، قال به بعض العلماء .

وهناك قول آخر ، بأن سكان وادى النيل الأول ، إنما هاج
 أواسط أفريقيا وشمالاً حتى بلغوا بلاد النوبة حيث استوطنوها ، واكتشفوا
 هناك وأسسوا حضارتهم الأولى .. وغير هؤلاء هؤلاء ، يقول
 بهجرة المصريين الأقدمين من بلاد آسيا إلى وادى النيل .

وهكذا ، آراء لم يبلغ العلم فيها مبلغ اليقين . . والله من بعد
 ومن قبل ، بكل شيء عليم . .

ويبقى أن نقول ، إن تلك مشكلة الإنسان فى كل مكان ، لم يزل ير
 علم الله علماً . . وهكذا نجد الإنسان المتحضر ، وبرغم ما بلغ من
 التقدم والحضارة — فلقد سادته وتسوده حتى اليوم سحب من ضباب

بمصيره وبمعرفة للحياة لبداية ونهاية، وغاية وحقيقة . . ولقد طوف الإنسان من أجل ذلك ، شرقاً وغرباً . . عاش في الغابات ونما على ضفاف الأنهار ، وأقام العمار واقتحم الصحراء والرمال ، ونشر في الدنيا الأضواء والظلال ، ورسم العلوم والمعارف . وأرهق عقله فيما يرى حوله وذهب إلى وراء ما يرى ، فراعته باب المجهول وحاول بكل ما أوتي أن يعرف سر الحياة لبداية وغاية . . وجعل كل ما حصل من علم ومعرفة في خدمة هدف واحد ، هو أن يعرف نفسه . . لماذا جاء ؟ ومن أين جاء ؟ ولكنه كان في كل مرة يحاول ، يقف أمام صخرة صماء . . وقد يلوح له في بعض الأحيان أنه اقرب من سر الكون ، فينشط ساعياً ولاهثاً . . ثم يتبين له أنه إنما كان يلهث وراء سراب ، وإذا الحائط مرة أخرى صماء . .

كان ذلك ، منذ البدايات الأولى للحضارة الأولى على الأرض . . ولم يزل هذا في أوج حضارة القرن العشرين ، ، وسوف تبقى إلى أن يشاء الخالق . .

• • •

وبعد أن سمحنا للخيال أن يسرح بنا بعيداً ، ولبعض الوقت ، عن جوهر بحثنا هذا ، . . وإلى النهر ومن هم حول النهر ، عودتنا . . جرى النهر ، من بعد أن تكوّن الصخر . . أو الأرض بما فيها من طباق مختلف نوعاً وشكلاً . .

وإذا ما توفرت المياه العذبة في مكان ، فلا بد للحياة أن تزدهر من حوله . . . والإنسان بطبعه اجتماعي . . . ومع الحياة تواجهه . . . فجاء إلى النهر ، يجيا على شطيه . . .

وعلى شاطئ النيل ، اكتشف الإنسان المصري الأول ، الزراعة . . . وأسس الحضارة على مر عصور طويلة ، لم يبتعد فيها عن النيل . ولقد أتت بعد الزراعة وزمان اكتشافها عصور زاهية حضارياً ، مؤسسة في الأصل على اكتشاف الزراعة ، والتفنن في حل مشاكلها ، مما خلق في حد ذاته علامات حضارة كثيرة ، ومن بينها اكتشاف المعادن واستغلال المناجم . . . ويقول « فارنجهتون » مشيراً إلى الثورة الصناعية التي بدأت في العصر الحجري الحديث الذي اكتشفت فيه الزراعة على جانبي النهر . . . ما يلي :

« عندما يدرس التاريخ كما ينبغي ، كي يفهم الإنسان القصة الحقيقية للمجتمع البشري كأساس لحياته الفكرية ، سيكون العرض المفصل الواقعي لطبيعة هذه الثورة العظيمة في سيطرة الإنسان على بيئته ، درساً من أهم الدروس الأساسية. وسيتألف العلم والورشة والمحاضرة والمكتبة لجعل مغزى هذين الألفي عام الحيوية (استدامة العصر الحجري الحديث) يرسب في أعماق الوعي التاريخي للبشرية . فهذه الثورة التكتيكية هي الأساس المادي للحضارة القديمة ، وفي تاريخ الإنسان لا يوجد تغير يمكن

مقارنته بذلك ، فيما بين هذه الثورة والثورة الصناعية ، في القرن الثامن عشر بعد الميلاد . . .

وتلك الثورة التي يعنيها فارنجهتون ، نبتت بذورها على ضفاف النيل بعد أن جرى النهر وعاش على ضفافه الإنسان المصري القديم ؛ وهكذا جرى النهر . . .

ونطق الحجر

قال أحمد شوقي :

« جمعت الطبيعة عبقريتها فكانت الجمال . وكان أحسن الجمال وأشرفه ما حل في الهيكل الآدمي وجاور العقل الشريف والنفس اللطيفة والحياة الشاعرة . فالجمال البشري سيد الجمال كله . . لا المثال البارح استطاع أن يخلعه على الدمي الحسان ولا للنيرات الزهر في ليالي الصحراء ، ماله من لمحة وبهاء ، ولا لبديع الزهر وغريبه في شباب الربيع ، ماله من بشاشة وطيب . وليس الجمال بلمحة العيون ولا بريق الثغور ولا هيئ القدود ولا أسالة الحدود ، ولا لؤلؤ الثنايا وراء عقيق الشفاه . . ولكن شعاع علوى يبسطه الجميل البديع على بعض الهياكل البشرية يكسوها روعة ويجعلها سحراً وفتنة للناس » .

قال شوقي هذا في عام ١٩٣٥ بعد الميلاد . .

فياترى ماذا رأت تفرقارى في تمثال زوجها وحبيبها رمسيس بعد أن صاغه الفنان الفرعونى منذ ما يقرب من هذا التاريخ ولكن قبل الميلاد .

وياترى ماذا قال رمسيس عن صورة زوجته جميلة الحملات بعد أن نحتها المثال البارح فوق الصخر الجلمود ؟ أكان الهيكل الآدمى أكثر سحراً

وفتنة للناس ، أم كان الهيكل الصخرى . . بالقطع كانت تفرنارى
 بجوار زوجها رمسيس ، بلحمها ودمها أجمل وأروع مما فعل المثال
 البارع . . وما فعل هذا إلا أن أنطق الحجر بما نقش عليه ليبقى على مر
 الزمان يحكى قصة الأمس . ويصور لنا ملامح الجلود .

قصة حب بين زوجين وحييين . . بين ملك وزوجة ملك يعشق الواحد
 منهما الآخر ، حتى لقد أبى حبه لها أن ينفرد بتخليد الفنان له على واجهة
 واحدة من الأعمال العظيمة التى تمت فى عهده « معبد أبو سمبل »
 فأجلسها معه بين الآلهة فى محراب الجلود . . ودعا الفنان المبدع أن ينحت
 للزمان وللفن آيات فى الصخر الجلمود . وإنا لنراها اليوم بتلك الملامح
 البارزة التى أنطق الفنان الصخر بها . نراها وتخيّل الملك المحب يناجى
 محبوبته . بما قال شاعرهم فى ذلك الزمان . من قول فى الغزل على ما كانوا
 يتصورونه . . .

إن غرام حبيبتى يقفز على شاطئ الغدير :

وفى الظلال تمسح رايض .

ولكننى أنزل إلى الماء وأوجه الأمواج .

ويشند بأسى فوق الغدير .

ويكون الماء هو والأرض تحت قدمى سواء .

لأن حبا يملأ قلبى قوة .

وإذا قبلتها انفرجت شفتاها .

وسكرت من غير خمر .
 كذلك فنحن نراها معاً آلهة بين الآلهة، على واجهة معبدهما ،
 ونقرأ في عينيها الحب والحنان كله لزوجها، ونتخيلها تقول كذلك كما قال
 شاعرهم في ذلك الزمان :
 أنا أختك الأولى ..
 وأنت لى كالروضة ..
 التى زرعت فيها الأزهار ..
 والأعشاب العطرة جميعاً ..
 وأجريت فيها غديراً ..
 لكى تضع فيه يدك ..
 إذا ما هبت ريح الشمال الباردة ..
 إن سماع صوتك ليسكرنى ..
 وحياتى كلها فى سماعك ..
 وإن رؤيتك ...
 لأحب إلى من الطعام والشراب .

كتب الشاعر القديم منذ ثلاثة أو أربعة آلاف سنة ذلك القول
 العذب الجميل، وسجل الكاتب، ونقش الفنان على الحجر، فأنتطق الحجر
 بلامع ذلك الحب العظيم على وجهى رمسيس وزوجته (الجميلة أيضاً) ..
 ودعنا نسأل الزمان وقد باعد ما بيننا وبينهم بألاف السنين .. ماذا يقول

شاعر اليوم تعبيراً عن الحب ؟ . . وكيف يعبر فنان اليوم إذا ما نحت أو رسم استظهاراً للعاطفة النبيلة التي تربط ما بين قلبين . . ثم، ألا يهرع كل من أحب اليوم إلى مصور أو رسام ليسجل له ومحبوته ذكرى جميلة، يحتفظان بها ما طالت بهما الأيام.. ليس في الحياة جديد . . ما فعله الجلود نفعله نحن أيضاً اليوم . ألا يذكرنا هذا بأنه لا جديد تحت الشمس فعلاً . وإذا ما كتنا اليوم نترك هذا ، فإذا نقول فيمن أدركه منذ نحو أربعة آلاف من السنين أو تزيد. في ذلك الزمان المنصرم، شكنا عالم في عهد سنوسريت الثاني- ٢١٥٠ ق . م . - من أن كل ما يمكن أن يقال قد قيل من عهد بعيد . . ومن أن الأدب لم يبق له ما يقوله إلا التكرار . . ثم قال في أسى وحسرة : « أأليتنى أجد ألفاظاً لم يعرفها الناس وعبارات وأقوالاً بلغة جديدة لم ينقض عهدا . وليس فيما تلوكه الألسن أقوال لم تصبح تافهة مملة معادة ، ولم يقلها آباؤنا من قبل » .

• • •

رئيس الثاني . . هذا الملك العظيم تمت في عهده أعمال عظيمة . . في المعمار وفي الفن ، في الحرب وفي النحت ، في الأدب وفي الشعر . . تجلت في عهده أعمال تمجد الفن في إبانه ، وإنجازات في الصلد الأصم شاهدة على قدرة الإنسان المصري في قديم زمانه . ولم يكن للحجر في حياته من قيمة إلا ما تمنحه إياه يد الفنان وإحساساته ومواهبه الخلاقة . لقد خلف رئيس الثاني أوسيزوستريس ، في قول الأقدمين ، من الأعمال

ما جعله حقاً جديراً بالتكريم وعرفان الجميل على الإنسانية، وقد أورثها شيئاً أبقي من سلطانه مهما كان ذلك السلطان ، جائراً أم عادلاً . .

ولكننا إذا ما اعترفنا بفضل ذلك الملك في تشييد العمران وتشجيع الفنان، فلا بد كذلك ألا نجهل العوامل التي يسرت له تلك الأعمال ، وساعدته على تحقيق حلمه في الخلود . . وتلك أعمال تضرب جذورها في بيداء التاريخ البعيد وتتداخل ثمرها وفروعها وتتعدد، متفاعلة متعاونة على خلق ما اتفق الناس على تسميته بالحضارة، وما مهد وأعان ملكنا هذا على أن ينثر تماثيله على طول البلاد وعرضها، وأن ينحت في الصخر لآفته معابد وهياكل . . وأن يشيد لحياته الثانية ما يتناسب وإياها من عظمة بقيت على الدهر وعمل عز على الزمان مثاله .

ما هي تلك العوامل التي نعى ؟ . .

إنها مناحى الحياة المختلفة . . إنها العقيدة والدين . . إنها العلم والفن .
 إنها الحياة الاجتماعية ما بين إنتاج وفائض إنتاج وصراع طبقي انساقت إليه الحياة بطبعها وطبيعتها ، ومعها الإنسان منذ هجر حياة جمع القوت إلى مشاكل إنتاجه . وإذا كان ذلك هو بداية السبيل، الذي مهد لرمسيس أن يأمر الفنان فيرسم والنحات فينحت والكاتب فيكتب ويسجل نقشه على الحجر ، والصانع أن يصنع كل ما يحتاجه في سلمه وحره . .
 إذا ما كانت تلك هي البدايات، فما أحرانا أن نتبعها من مهدها، وسوف

نجد أن المنابع الأساسية للمعرفة البشرية إنما تتمثل في مصدرين اثنين ،
هما :

(١) تطور قوى الإنتاج ، وعنه انبثقت مجموعة العلوم التي يطلق
عليها اسم العلوم الطبيعية وتتضمن علوما كالطبيعة والكيمياء وعلم الحيوان
والنبات والطب والحساب والفلك . كذلك ترتبط بها علوم التكنولوجيا
كالهندسة الميكانيكية والصناعات الكيميائية . . إلخ .

(٢) تطور الصراع الطبقي ، وعنه انبثقت مجموعة العلوم التي يطلق
عليها اسم العلوم الاجتماعية كالاقتصاد والتاريخ وعلم النفس . . إلخ .

هذا ، وإن يكن ذلك التقسيم في حقيقة الأمر ذا طابع أكاديمي إلى
حد كبير ، إذ تظل بعض المعارف البشرية الأساسية كالرياضيات والفلسفة
تستمد ازدهارها من المنبعين أو المصدرين الأساسيين معاً . ثم كانت
الفلسفة ، بعد ذلك ، بمثابة الاحتضان الأعلى للعلوم الطبيعية والاجتماعية معاً
ولم تكن صادرة عن أحد المصدرين فحسب . . ولم يزل أمل الإنسانية في
مستقبلها ، أن تنقض الجدر القائمة عازلة بين العلم الطبيعي والعلم الإنساني
أو الاجتماعي بقصد أن يخفف الثاني من غلواء الأول . .

ولنذهب الآن ننظر في بعض مناحي تلك المعارف البشرية التي
بدأت حامية على بساط الزمان منذ أن تطور الإنسان ونضج عقله واتخذ
سبيله في هذه الحياة عجباً ، يتطلع حوله ويقتبس من الطبيعة هاديته ومعلمته ،

تارة تقسو وتارة تمنحو، حتى تمكن الإنسان من أن ينتج فائضاً من القوت يوفر به الحياة لأيد تصنع وعقل يفكر أو يجد الفراغ ليفكر . .

الناحية الاجتماعية :

إذا تطورنا مع الناحية الاجتماعية منذ البدايات البعيدة في حياة البشر، وجدنا أنه في العصر الحجري القديم كان المجتمع ينقسم إلى عدة مجموعات اجتماعية صغيرة متفرقة تقوم فيها النساء بجمع القوت، ويختص الرجال بصيد الحيوان ويعيش الكل حياة المشاع البدائية . إلا أن النساء كن العنصر الدائم في كل عشيرة وهن ضمان استمرارها وإلين ينتمى البنون . كانت تلك الجماعات تسمى بالعشائر الطوطمية . بمعنى أن كل عشيرة تتخذ لها طوطماً أو معبوداً . وفي ظل مجتمع يعيش فيه الإنسان هكذا متطفلاً على الطبيعة الجامحة كان لا بد أن ينشأ السحر كى يعوض فجوات عجز التكتيك البدائي . وفي مثل هذه المجتمعات البدائية، من المحتم أن تكون طقوس وحفلات العيد ودفن الموتى ظاهرة اجتماعية أساسية . .

ولكن أين تقام مثل تلك الطقوس ؟ لا بد من مكان له قدسيته واحترامه يوضع فيه الطوطم وتقدم له القرابين وتقام بين يديه الطقوس والحفلات . . مثل ذلك المكان هو ما تطور فيما بعد ليكون المعبد .

وإذا ما انتقلنا إلى العصر الحجري الحديث، فلإننا نجد أن الإنسان قد استقر نوعاً ما ونشأت القرية كظاهرة اجتماعية في اتجاه ذلك الاستقرار .

ولقد تم هذا كنتيجة من نتائج اتجاه الإنسان إلى الزراعة التي اعتبرت السمة الأساسية لذلك العصر. ولقد تميزت حياة القرية بنشأة بيوت الطين والمنازل الخشبية. . وتكاثر أنواع الحفلات والطقوس الدينية التي كانت تقام. . فنجد منها حفلات الزواج التي تعرف باحتفالات الخصوبة، والتي كان يستخدم فيها التزاوج البشري بطقوس خاصة تهدف إلى تشجيع المحاصيل على التكاثر واسترضاء الطبيعة وإغرائها على مطاوعة الإنسان ورفع نكباتها عنه، كما أصبحت احتفالات الأمطار والحصاد من الطقوس والحفلات المميزة لذلك العصر الحجري. . كذلك كان من الطبيعي أن يصاحب الاستقرار في القرية واستقرار العمل الزراعي، الاهتمام أيضاً بأنواع من الأعمال كانت في غاياتها أسس علم الفلك. . ذلك الذي لم يكن من الممكن أن يوضع بينه وبين التنجيم حد فاصل آنذاك. . فالاعتبارات العملية والترعات الدينية كانت مختلطة. . وإذا عرفنا أن علم الفلك ظل مختلطاً بالتنجيم حتى أواخر عصر النهضة - أدركنا صعوبة فصل الفلك بالذات عن علوم التنجيم في عالم يدين فيه الإنسان بفكرة الولاء لإله بدائي موجود في السماء يحرك الكواكب والنجوم كما يشاء. . وهنا يمكن القول إن الإنسان في هذه المرحلة استطاع أن يبدع أفكاره الأسطورية لأول مرة عن أصل الخليقة. .

وإذا ما مضينا في رحلة التاريخ نقلب صفحاته ، وصلنا بعد ذلك إلى العصر البرونزي. . وهو عصر يعد بجدارة بداية العهد الحضاري الحقيقي

بمشاكله المعقدة . ولقد واجه الإنسان المهمة الحضارية في حياته بشجاعة ومقدرة، مكتته من أن ينجز فعلاً أعمالاً تبدو مدهشة بالقياس إلى مستوى المعرفة القائم آنذاك . وقامت الدولة، نابتة من بلورة حاجة مصر القديمة إلى تنظيم مركزي للرى ليكون في خدمة الزراعة، ثم تكون هذه بدورها في خدمة الدولة . ومن هنا تجاوزت القرى . وتمركزت المدن . . وتحضرت معتمدة على فائض من الإنتاج الزراعى وفير . . بمعنى أن المدينة هي نتاج الحضارة وليست سبباً لها . وإذ نشأت المجتمعات الطبقيّة وتم الانقسام الاجتماعى كان من الطبيعى أن تبقى أكلها مادياً وفكرياً وروحياً . . الآلهة والمعابد، الحكومة والملوك الذين ينتمون إلى الآلهة أو هم آلهة على الأرض . واقتضت ضرورات العصر اختراع الكتابة . . كما تطلبت قيام الحروب على نطاق واسع نسبياً . وأدت الحروب إلى هزيمة دول وانتصار أخرى، وكان مع النصر والهزيمة نصر للآلهة أيضاً وهزيمة . . ومع الانتصار تقام الطقوس الدينية والاحتفالات قرباناً للآلهة وشكراً وعرفاناً . . وتبنى المعابد ويتفنن البانون في تنسيقها وإبداعها ويوضع في خدمتها كل فن وعلم . . وسجلت على جلدتها أحداث الزمان ووقائع العصر، فكانت مكاناً للعبادة كما كانت مكاناً للإعلام والتسجيل للتاريخ . وكانت المعابد في ذلك العصر أيضاً مكاناً للاستشفاء والعلاج إذ ظهرت لأول مرة ظاهرة احتراف الطب كهنة متخصصة في يد الكهنة وخدام المعبد . . ولقد ارتبطت الممارسة الطبية ارتباطاً وثيقاً بالطقوس الدينية . وشيئاً فشيئاً تكاملت نظرية

مؤداها أن المرض ليس لإرواحاً شريرة تسكن الجسد . وعلى هذا كانت مهمة الطب الأولى ، هي البحث عن الطرق التي تؤدي إلى طرد الأرواح الشريرة من الجسد . ولقد ظلت تلك النظرية مرتبطة بالكهان في المعابد وامتيازاتهم ، بحيث كان أى تحد لها لا بد أن ينتهى إلى الاتهام بالحياة أو الهرطقة . وكانت عمليات التحنيط تم في المعابد إذ هي دور العلاج في ذلك الوقت . ولقد قيل إن الطب في مصر ، لم يتقدم كثيراً برغم عظم الإنجازات التي بلغها المصريون الأول في فن التحنيط . والواقع أن الطب لم يتأثر كثيراً بالمعرفة التي تجمعت لدى المحنطين الذين كانوا يقومون بعملهم في المعابد إذ أن هؤلاء كانوا يمثلون حرفة متميزة ومتخصصة ومنفصلة تماماً عن طب الكهنة . . وليس معنى هذا ، أن فن التحنيط نفسه لم يؤد إلى معلومات علمية مفيدة في علم التشريح ، غير أن هذه المعلومات ظلت بعيدة عن إفادة الطب الباطني الذي يقوم به كهنة المعابد . وفضلاً عن هذا ، فقد انحصر التحنيط في الطبقة الحاكمة وارتبط ببواعث دينية واضحة ، وأساطير جعلت من الصعب تداول المعلومات التي لدى المحنطين .

ومع موكب التاريخ ، نبلغ العصر الحديدي الأول . . وما كان اكتشاف خام الحديد لاشك ، إلا عنصراً محولاً في التطور الاجتماعي . . واتسم العصر بوجود فائض إنتاج وآلات قابلة للتبادل التجاري على نطاق واسع . وفي

ذلك العصر، نشأت الحروف الأيجدية في صورتها المبسطة نسيباً . كذلك ظهرت النقود المعدنية كظاهرة مرتبطة باتساع التجارة بين المدن . . وأيضاً نشأت الفلسفة والأدب، كتعبير عن وضع طبقى محدد . . وفى ظل تلك الظروف تطورت العلوم العقلية تطوراً حقيقياً، وكبيراً وعلى وجه التخصيص الرياضيات والفلك والطب . تلك المجموعة من العلوم التى سميت أحياناً بالعلوم النبيلة التى جاء نموها وازدهارها على يد الطبقات السائدة المتفرغة للبحث والدراسة والتسجيل والكتابة .

* * *

الدين :

يرى كثير من العلماء أن الأساطير هى أصل الدين بين الهمج، وهو رأى لا يتصف بالقطع حتى اليوم، لأن العتائد الهمجية قد تلبست بالأساطير فى جميع القبائل الفطرية، فلايسهل من أجل ذلك أن يرفض القول كله بالعلاقة بين الأسطورة والعقيدة، ولكن لايسهل من جانب آخر المطابقة بين العقيدة والأسطورة فى كل شىء وفى كل خاصة. ذلك لأن العقيدة قد تحتوى الأسطورة ولكن الأسطورة لا تحتويها . إذ يشتمل عنصر العقيدة على زيادة لايشتمل عليها عنصر الأسطورة، وهى زيادة الإلزام الأخلاقى والشعور الأدبى بالطاعة والولاء، والأمل فى المعونة والرحمة من جانب الرب المعبود .

والأكثر من ذلك من ناقدى الأديان يعلون العقيدة، بضعف الإنسان بين

مظاهر الكون وأعدائه فيه من القوى الطبيعية والأحياء . فلا غنى له عندئذ عن سنه يتدعه ابتداءً ليستشعر الطمأنينة بالتعويل عليه والتوجه إليه بالصلوات في شدته وبلواه . ولكن في واقع الأمر ، أن الضعف لا يعطل العقيدة الدينية كل التعليل ، لأنها تصدر كذلك من غير الضعفاء بين الناس .

ولم تكن أرباب الأمم الماضية في جميع أطوارها نوعاً واحداً أو مثلاً لفكرة واحدة ، ولكنها أنواع شتى يمكن أن تتجمع في الأنواع التالية :

- ١ - أرباب الطبيعة أو الأرباب التي تتمثل فيها مشاهد الطبيعة وقواها ، كالرعد والبرق والمطر والفجر والظلام والينابيع والبحار والأنهار والشمس والقمر والسماء والريبع .
- ٢ - أرباب الإنسانية ، وهي الأرباب التي تقترن بأسماء الأبطال والقادة المحبوبين والمرهوبين ويحسبهم عبادهم من القادرين على الخوارق والمعجزات .
- ٣ - أرباب الأسرة ، وهم الأسلاف الغابرون .
- ٤ - أرباب المعاني ، كرب العشق ورب الحرب ورب الصيد . . وما إليها .
- ٥ - أرباب البيت ، كرب الموقد ورب البئر ورب الطعام . .

٦ - أرباب النسل والحصب .

٧ - آلهة الخلق، التي ينسب إليها خلق السماء والأرض والإنسان والحيوان .

٨ - الآلهة العليا ، وهي ما تضمن السعادة الأبدية للأرواح في عالم البقاء .

وهذه الطبقة من طبقات العبادة هي أرق ما بلغته الإنسانية في أطوارها المتتالية ، واستعدت بعده للإيمان بإله واحد لجميع الأكوان والمخلوقات بغير استثناء أمة من الناس .

ولقد وصل المصريون القدماء إلى التوحيد . وبقيت أسماء الإله الواحد متعددة على حسب التعود في مظاهر التجلي المتعددة لذلك الإله ، فكان أوزيريس هو إله الشمس باسم رع ، وهو الإله الخالق باسم خنوم ، وهو الإله المعلم الحكيم باسم توت ، وهو في الوقت نفسه إله العالم الآخر وإله الخلق أيضاً حيث ينبت منه الزرع . ويصورونه في كتاب الموتى جسداً راقداً في صورة الأرض تخرج منه السنابل والحبوب . وكانوا بعد كل هذه الأطوار يرسمون أوزيريس ، على مثال مومياء محنطة ويردون أصله إلى العرابة المدفونة كأنهم لم ينسوا بعد عبادة الإله الواحد الخالق للكون كله - عبادة الموتى أو عبادة الأسلاف .

وقد امتزجت عقيدة الروح بكل عقيدة دينية بعد أطوار العقيدة

البدائية وفي أثنائها . فعبادة الأسلاف لا تخاطر على بال ما لم تخاطر معها فكرة بقاء الروح ، وإنما تترقى الأنماط على حسب الترقى في المعارف والمعقولات . فليس من شك اليوم ، في أن التطور في الديانات محقق لاشك فيه ولكنه لم يكن على سلم واحد متعاقب الدرجات ، بل كان على سلالم مختلفة تصعد من ناحية وتهبط من ناحية أخرى .

ولقد تطورت فكرة الروح عند الفراعنة ، وظلت تتطور حتى انقسم مفهوم الروح إلى شيئين مختلفين تماماً :

أولاً : تحولت روح الرجل القوى إلى روح البطل الأسطوري ثم في تطورها تحولت إلى روح الإله أو المعبود . بمعنى أنه في عصر الحضارة القديمة والأديان البدائية ، لم تبتكر أساطير ولا جدد خرافات بقدر ما كان هناك من تنظيم لخرافات ما قبل الحضارة التي ورثوها وثبتوها ، فخلقوا بذلك لاهوتا وعقائد لاهوتية جامدة ثبتوا قواعدها في مجتمعهم ، بإنشاء مؤسسات دينية أو ما يسمى بالمعابد ، وهي ذات مصالح دنيوية واضحة مرتبطة بالطبقة الحاكمة .

ثانياً : عزل الروح عن أصلها الإنساني وتحويلها إلى قوة طبيعية غير منظورة . وعموماً ، فإنه بمجرد أن استقرت فكرة الروح والعقيدة الروحية عند الفراعنة ، وأصبحت الطقوس أكثر انتظاماً ، كان من الضروري أن تنتهي الأمور إلى الأديان البدائية .

ولعلنا بمافات ، فدرك مغزى تحول روح الرجل القوى القادر في

العشيرة أو في التاريخ القديم إلى روح الإله . . حتى أضحى مثل ذلك الرجل هو والإله شيئاً واحداً في كثير من الأحيان . كان ذلك في الحقيقة، نشأة فكرة الفرعون في مصر ومصدر تأليهه . . ثم بنشأة هذا الفرعون ، نشأت معه الحكومة بمعناها الحقيقي . وتؤكد حقائق التاريخ أن فرعون لم يكن في المبدأ إلا رجلاً تميز بالقوة والقدرة، فاختارته عشيرته معبوداً لها وألمته في احتفالات كاحتفالات الحصاد الزراعى أو غيرها . . فكان فيها كملك . . وهكذا تحول ملك المحصول إلى ملك زمنى عندما تحول المجتمع من العصر الحجري الحديث إلى العصر الحضارى . وهكذا يرجع المؤرخون نشأة الفراعنة في مصر .

ومن التطور ، أن الهمجى الذى جهل أسرار التناسل ، قد يتخذ له جداً معبوداً يتمثله في شبح الأسد أو الكلب أو الصقر أو العقاب ، ولا ينكر أن يكون أبوه جسداً وروحاً بغير مجاز . أما من تحضر وتهلب واستطاع أن يستطلع أسرار الخليقة بعض الاستطلاع ، فإنه يجعل أباه روحاً تتجلى في الشمس ، ويفرق من ثم بين أبوة الجسد وأبوة الروح . وعلى هذا المثال ولأريب ، زعم الكهنة أن هذا الفرعون أو ذاك من الفراعين ابن الشمس أو ابن أوزيريس ، وإن لم يتضح في الإحواك أنهم ينكرون أبوته الجسدية المسجلة بالميراث ، وبحقها — يجلس على عرش أبيه . معنى ذلك أن عبادة الشمس تستلزم درجة من الثقافة العامية والأدبية لم تيسر في أقدم العصور التاريخية .

وبالدخول في عبادة الشمس، ارتفع العقل البشرى بفكرة الخلق من أفق الأرض القريب إلى الآفاق العليا في السموات . . وكانت بذلك مقدمة للتوحيد، وأغلب الظنون المدعمة بالقرائن المعقولة، هي أن مصر بدأت بتوحيد الدين كما بدأت بتوحيد الدولة وكانت ديانة الشمس بعد ذلك قنطرة أخيرة بين مذاهب التعديد في الآلهة ومذاهب التوحيد .

ولقد تصدى للنظر في الدين فحول من مفكرى القرن الماضى . ولو اطلعت على التعاريف الشتى التي وضعوها للدين لأيقنت بأن الدين لا يزال كما عهدناه في الإنسان الأول ، ظاهرة مرتكزة على الاعتقاد وكان تطورها بتطور عقل الإنسان رهيناً . وإليك كلمات استجمعها « بنيامين كيد » عن حقيقة الدين ، قال بها مفكرون اختلف بهم الزمان والمكان :

يقول « سنيك » . . الدين معرفة الله والتشبه به .

ويقول « كونت » . . الدين عبادة إنسانية . .

ويقول « إسكندرباين » . . إن العاطفة الدينية يكونها الانفعال الهادئ مقروناً بالخوف وحساسية الخضوع للعظمة ،

ويقول هكسلى . . الدين إجلال المثل الأعلى من الأخلاق ، ومحبة العمل على تحقيقه في الحياة .

وهو في الإسلام . . المعاملة

وهكذا . . وهكذا . . ثم نعود إلى مصر القديمة وإلى الفراعين . .

لقد كان الدين في مصر القديمة من فوق كل شيء ومن أسفل منه كما يقول «ول ديورانت»، وحقاً ذلك، فالدين في مصر مبتدئ من الطواطم حتى اللاهوت. وأثره واضح جلي في كل شيء وبخاصة الأدب والفن. ويقولون إنه ليس بالإمكان دراسة المصري دون دراسة آلهته. بداية الخلق عند المصري القديم هي السماء. والنيل ظل أكبر أربابه دون مرء، ولكن هذا لا يتنافى مع اختصاص كل إقليم بإله. وكان القمر إلهاً، ولعله أقدم ما عبد من الآلهة في مصر ولكن الشمس كانت أعظم الآلهة وكانت تعبد على أنها إلاله الأعلى رع أو الإله حورس. وكانت الروح الدينية عند المصريين القدماء بعامة نخسبة وغزيرة، بلغ من نخسبها أن المصريين لم يعبدوا مصدر الحياة فحسب بل عبدوا مع هذا المصدر كل صورة من صور الحياة. وظل المصري يقيم لمعبوداته المعابد ويقدم القرابين زماناً طويلاً. وكانت الآلهة من الحيوان أكثر تنوعاً بين المصريين من آلهة النبات، وكانت هذه الآلهة من الكثرة بحيث غصت المعابد بها وكأنها مغرض حيوانات صاخبة. فكان العجل والتمساح والصقر والبقرة والأوزة والعنزة والكبش والقط والكلب والدجاجة وابن آوى والأفعى من الآلهة، وتركوا بعض تلك اللواتج تجوس في أركان المعابد ولما من الحرية ما للبقرة المقلمة في الهند حتى هذه الأيام.

بعد ذلك تحولت الآلهة إلى آدميين؛ وإن تكن ظلت محتفظة بصورتها الحيوانية المزدوجة وبرموزها. فكان آمون مثلاً يمثل بأوزة أوبكباش

وكان رع يرمز له بعجل، وهكذا.. وكانت المعابد وجدوانها سجلات تاريخية تعكس لنا اليوم صورتك المعتقدات والعبادات حتى أغربها مثل العبادة الجنسية التي تظهر كثيراً في الرسوم والنقوش على جدران المعابد لحيوانات كالماعز والعجل بقضبان منتصبه رمزاً للقدرة الجنسية الخالقة ..

ثم .. صار الآلهة بعد ذلك بشراً سوياً .. أو صار البشر آلهة إن شئنا اللذة . وهؤلاء هم البشر المتفوقون رجالاً ونساء، ولعل ذلك يعيد إلى أذهاننا ذكر آلهة اليونان فيما بعد ..

وكان أعظم آلهة مصر طراً - رع أو آمون كما كان يسميه أهل الجنوب، وأوزيريس وحورس .. ولما تقدم العهد، امتزج رع وآمون وفتح فأصبح الكل في إله واحد أعلى .. وكان الملك أو الفرعون نفسه إلهاً ، ويسمى باسم ابن آمون - رع وهو لا يحكم مصر بحقه إلهي فحسب، بل يحكمها أيضاً بحق مولده الإلهي، فهو إله رضى أن تكون الأرض موطناً له إلى حين .. وهكذا كان رمسيس الثاني .. إلهاً .. نصب نفسه على واجهة معبد أبو سمبل بين الآلهة الآخرين . كذلك كان الملك هو الرئيس الديني الأعلى، يرأس المواكب والحفلات العظيمة التي تخرج من المعبد أو تقام فيه تمجيداً للآلهة في أعيادها ..

ولقد كان الكهنة دعامة العرش الذي يقوم بالحق الإلهي، ومن ثم نشأت طبقة أصبحت على مر الزمن أعظم ثراء وأقوى سلطاناً من أمراء

الإقطاع ، بل ومن الأسرة المالكة ذاتها . وكان الكهنة في المعابد يقتاتون من القرابين التي تقدم للآلهة كما كانت لهم موارد عظيمة من موارد ممتلكات المعابد ومن صلواتهم وخدماتهم الدينية .

ويصف « هيرودوت » كهنة المعابد عند الفراعنة فيقول : وهم أكثر الناس اهتماماً بعبادة الآلهة ولا يتحللون قط من المراسم الإلهية . . . يلبسون ثياباً من نسيج الكتان نظيفة حديثة الغسل على اللوام . . . ويختنون حرصاً منهم على النظافة ، لأنهم يعتقدون أن النظافة أفضل من الجمال . ويحلقون شعر أجسامهم بأجمعه مرة في كل ثلاثة أيام ، حتى لا يجد القمل أو غيره من الأقدار مكاناً في أجسامهم . . . وهم يغتسلون بالماء البارد مرتين في النهار ومرتين في الليل .

والدين الفرعوني يركز كثيراً على فكرة الخلود . ووجد الكهنة في المعابد بذلك فرصة كبرى حين استطاعوا أن يقدموا المساعدة للناس لاجتياز الاختبارات المؤدية للخلود ، حين يحاسب أوزير الموقى ويزن قلوبهم . . . وكان الكهنة على استعداد لتعريف الناس بذلك نظير ثمن يؤدونه لهم . . . ومن بين تلك المساعدات شراء كتاب الموقى ، أو يعلمهم كيف تعلن الروح براءتها من الذنوب الكبرى في صورة اعتراف سلبى يقول :

« سلام عليك أيها الإله العظيم ، رب الصدق والعدالة . . . لقد وقفت أمامك يارب ، وحيى بي لكى أشاهد ما لديك من جمال . . . أحمل إليك الصدق . . . إنى لم أظلم الناس . . . لم أظلم الفقراء . . . لم أهمل . . . لم . . .

ولم . . حتى يقول ، ولم أصطد بالشباك طيور الإله . . أنا طاهر . . أنا طاهر . . أنا طاهر . . وظلوا هكذا . . حتى كان أنخاتون الذى جلس على العرش فى سنة ١٣٨٠ ق . م . ولم يكده يتولى الحكم حتى ثار على دين أمون وعلى أساليب الكهنة فى المعابد وخاصة فى معبد الكرنك الذى كان كهنته يتخلون من العديد من النساء سرارى لأمون فى الظاهر ويستمتعون هم بهن فى الحقيقة . وثار الملك وقال . . « إن أقوال الكهنة لأشد إثماً من كل ما سمعت منذ توليت الملك حتى السنة الرابعة منه ، وهى كذلك أشد إثماً مما سمعه أمنحوتب الثالث . . واتخذ له آتون إلهاً ، وتسمى بأنخاتون أو (آتون الأرض) وقال فيه :

ما أجمل مطلعك فى أفق السماء .

أى آتون الحى ، مبدأ الحياة .

فإذا ما أشرقت فى الأفق الشرقى

ملأت الأرض كلها بجمالك .

وقال . . إن آتون ليس إلهاً فى صورة البشر دون غيرها من الصور ، ولكنه رمز للأبوة الجزعة القلقة الرحيمة الرقيقة القلب . وكانت بذلك فكرة التوحيد التى سمت بالبشرية إلى الدرجات العلى . . وكان حكم ذاك الملك فترة من الحنو والعطف وسط ملحمة القوة والسلطان فى تاريخ مصر . . ولعل الحنو والعطف ، كانا سبباً لفقد مصر هيبتها فى آسيا وضياع ولاياتها هناك وخسارتها لإمبراطوريتها الواسعة حتى عادت دولة صغيرة ،

أقمرت خزانتها وعمتها الفوضى وألقى الملك نفسه فقيراً معدماً، ثم مات ولم يزل شاباً في عام ١٣٦٢ ق. م.

وبعد عامين . . جاء توت عنخ آمون حبيب الكهنة والعاثد إلى رحاب المعبد وعبادة الآلهة القديمة . وأزيلت من جميع المعابد كلمات أتون وأخناتون . . وحرم الكهنة على الشعب أن ينطقوا باسم الملك المارق : ه وعاد كل شيء إلى سابق عهده .

ومضى توت عنخ آمون، وجاء من بعده قائد باسل يدعى حارمحب أعاد إلى مصر أملاكها ولاياتها . .

ثم مضى هذا ، ليأتي من بعده سبتي الأول الذى شيد بهو الأعمدة فى الكرنك، وشرع فى نحت معبد عظيم فى حضور أبو سمبل .
ثم ارتقى العرش رمسيس الثانى بطل قصتنا هذه . . والذى تم فى عهده بناء أو حفر معبد أبو سمبل، وزينت واجهاته بتماثيله وزوجه الحملية بين الآلهة . .

ولقد عقد الأمور بعد أن فشلت ثورة أخناتون الدينية، أن الملك نفسه كان يُنظر إليه باعتباره إلهاً . ولذلك اتجه الأمر إلى أن يكون لفرعون إله غير إله الشعب وكان هذا الإله هو رع إله الشمس . . وباعتباره إله فرعون ، كانت تقدم له فروض الطاعة والإجلال أكثر من أى إله آخر، باستثناء أوزيريس وإيزيس . وحتى الأسرة الثامنة عشرة فى مصر

لم يجرؤ ، أحد من الشعب على عبادة إله فرعون الخاص .
ولقد تم توحيد الوجه البحرى والوجه القبلى فى مصر منذ الأسرة الأولى
ولكن بقيت الآلهة متعددة كما هى . وكان من عوائق هذا التوحيد، المركز
الاقتصادى الذى احتلته المعابد الخاصة بكل إله، ومقاومة كهنة هذه
المعابد تجاه توحيد الآلهة باعتباره ضاراً بمصالحهم الاقتصادية . . وكانوا
هم أعداء فكرة التوحيد وثورة أئختاتون الدينية . . لأن المعابد كانت
مراكز اقتصادية ضخمة تملك الضياع والمزارع . ولقد أفاض الفراعنة
الأوائل والأمراء، الامتيازات على المعابد، هذا بالإضافة إلى ما يرفع
إلى خزائن الآلهة فى معابدها من هدايا وفيرة ثمينة ومحاصيل وقطعان . .
إلخ . . ولقد أورد « استندرف » فى كتابه (ديانة قدماء المصريين)
أمثلة على ما حققته المعابد من ثروة فى أوائل حكم الرعامسة (حوالى
١١٥٠ ق . م) . فلقد ورد فى ورقة بردى « هريس » بالمتحف البريطانى ،
أن ممتلكات المعابد كانت فى تلك الفترة لا تقل عن ١٠٣١٧٥ نخادماً
و ٤٩٠٣٨٦ رأساً من الماشية ، ٤١٣ حديقة ، ١٠٧٤٤١٨ فداناً
و ٨٨ مركباً ، ٥١ حوضاً للسفن ، ١٦٩ بلدة بعضها فى وادى النيل
وبعضها خارجه .

بعد ذلك، كانت غاية الفرعون . . هى الخلود . .

ويؤكد « تشايلد » فى كتابه (ماذا حدث فى التاريخ) أن بلوغ
الخلود لم يظهر فى اللاهوت المصرى القديم كحافز على الفضيلة الأخلاقية

أبدأ . وما كان الخلود بعد الموت في الحضارة القديمة إلا استمراراً للحياة على الأرض .

وبرغم علو سلطة الملك ، فلقد كانت هناك سلطة أعلى منه ، تلك هي سلطة الكهنة . وكان طبيعياً أن يقوم بين السلطتين خلاف ، وتطور ذلك الخلاف المستر حتى كان من شأن تلك السياسة أن يصبح الملوك خدام الآلهة ، عاجلاً كان ذلك أو آجلاً .. حتى كانت النتيجة أن اغتصب الكهنة ورجال المعابد الملك .. وتولى الحكم الكاهن الأكبر للإله آمون ، وحكم حكماً كان له فيه السلطان الأعلى .

وهكذا انتهى الأمر بالمعابد وكهنتها إلى كراسي الحكم لتصبح في مصر حكومة دينية تصطبغ قراراتها بالصبغة المقدسة الإلهية . وامتنعت الآلهة وكهنة المعابد كل ما في مصر من مصادر الحياة حتى نضب معينها ، في الوقت الذي كان فيه الغزاة الأجانب يعدون العدة للانقضاض .. وجاء فعلاً اللوبيون من الغرب عام ٩٤٥ ق . م . والأحباش من الجنوب في عام ٧٢٢ ق . م والأشوريون من الشمال في عام ٦٧٤ ق . م . وأخضعوا برابسلطانهم مصر التي كان يستبد بها الكهنة .. وهكذا قضى المعبد على مصر في فترة من حياتها طالت حتى نهضت مرة أخرى ، حين فتحها المسلمون حوالي ٦٥٠ بعد الميلاد وبنوا القاهرة من أنقاض منفيس ، وبلاؤها بالقلاع والقباب الزاهية الألوان . .

العلم :

يقول « ج كراوثر » : (إن العلم هو نظام السلوك الذى يستطيع الإنسان من خلاله أن يحقق سيطرته على بيئته) .

ويقول « فارينجتون » : (إن منبع العلم هو التجربة ، هو أهدافه العملية . وهذه التجربة هي محك نجاحه . والعلم ينشأ من خلال الاتصال بالأشياء وهو يعتمد على أدلة الحواس .. إن العلم بمعناه الحقيقى والعملى ، هو الأساس الضرورى للعلم التجريدى والافتراضى) . ولا يتنافى العلم العملى والتكتيك مع القدرة على التفكير بصرف النظر عن القدرة على التعبير . معنى ذلك أن العلم موجود قبل الحضارة .

كانت المعابد هي دور العلم لامشاحة في مصر القديمة . ذلك بأن العلماء كانوا في غالبيتهم من الكهنة . لأنهم يعبدون عن صخب الحياة وضجيجها ، يتمتعون بما في المعابد من راحة وطمأنينة . فكانوا هم الذين وضعوا أسس العلوم المصرية برغم ما كان في عقائدهم من خرافات . ويذكر المصريون في سجلاتهم وأساطيرهم ، أن العلوم قد اخترعها من نحو ثمانية عشر ألف سنة قبل الميلاد « تموت » إله الحكمة المصرى ، في خلال حكمه على ظهر الأرض ، والذي طال زمانه حتى كان في تقديرهم ثلاثة آلاف عام ؛ كما أنهم يؤكدون أن أقدم الكتب في كل علم من العلوم كانت من بين العشرين ألف مجلد التي وضعها ذاك الإله العالم . ويؤكد ذلك أيضاً

« إيمبليكس » (حوالى ٣٠٠ سنة بعد الميلاد) . أما « ميشون » المؤرخ
المصرى الذى عاش عام ٣٠٠ قبل الميلاد، فيرى أن تحوت - الإله -
وضع ستة وثلاثين ألف كتاب . .

ولا غرابة فى أن يكون منبع العلم من تفرغ الكهنة واعتمادهم فى
أقواتهم على غيرهم . . وتلك نظرة أكدتها ملاحظات الفلاسفة فيما بعد ،
ولننظر فيما قالوا . .

قال « أفلاطون » : إن الفراغ شرط ضرورى لكسب الحكمة، وإنك
من أجل ذلك لست بواجدها فيمن يملأون زمانهم بالسعى فى طلب
الرزق، ولكنك واجدها فيمن عنده ما يغنيه عن هذا الطلب، أو فيمن
حملت عنه الدولة متاعب هذا الطلب والتلقى من أجل اللقمة .. معنى
ذلك ، ربط بين الفراغ وكسب الحكمة .

وجاء « أرسطو » بعده ، وربط الفراغ بحياة التأمل والتفكير واستكناه
بواطن هذا الوجود، فهو بذلك جرى فى هذا الأمر هو وأفلاطون فى طريق
واحد . . ولقد نحا نحو أفلاطون وأرسطو، أكثر فلاسفة اليونان .. ونحن
لو ترجمنا (حكمة) أفلاطون و (حياة التأمل) التى عنها أرسطو ،
لو ترجمناهما، لشممت أوجهاً من النشاط الفكرى والنفسانى والروحانى ،
كثيرة .. وهذا ما كانوه ، كهنة المعابد عند الفراعنة الأقدمين . . .

ولهذا، فلا بأس من أن نورد هنا هذه الكلمات .. إن باب الحضارة



وسپس ملکا . . .

مفتاحه في يد الرجل الذي عنده فراغ ، وإن الفلسفة والموسيقى والفن بعامة ،
لا تنتعش في قوم يشغل رجالهم في اليوم ، وتشتغل نساؤهم ، أربع عشرة
ساعة ..

وعلى أية حال ، فلسوف نمضي نتحسس أصول العلم التطبيقي منذ
بداياته الأولى وبخاصة فروعها التي كان لها الدور الأكبر في إقامة
المعابد بفن معماري بديع وبمواقع محددة فلكياً حتى يبلغ نور الشمس
قدس الأقداس في وقت معين ؛ كذلك فروع العلم التي كانت في خدمة
المعابد أو حتمت وجودها حياة المعبد ، وسنجد في غير ترتيب زمني :

الكتابة :

إن العمليات الواسعة النطاق والمقادير الضخمة من المواد الزراعية
وغيرها ، الداخلة في نطاق إدارة المدينة الجديدة أو مدينة المعبد ، حتمت
ظهور الكتابة . فلقد استحال على الكهنة أن يعتمدوا على ذاكرتهم في
تسجيل كميات المواد الداخلة إلى المعبد أو الخارجة منه ، ومن هنا نشأت
الحاجة إلى التسجيل ، فكانت الكتابة وهي علامة بارزة من علامات
الحضارة ..

الفلك :

لقد ارتبط هذا العلم في منشئه ارتباطاً وثيقاً بالحاجة القصوى إلى
أبو سبل

تنظيم الزمن على مدار السنة وعلاقة هذا بالزراعة ومتطلباتها ، ولكنه كذلك له صلة وثيقة بالأفكار الدينية التي كانت قائمة آنذاك ولها دخل في تطوره . فالطقوس الدينية السائدة وأفكار البعث بعد الموت ، والحاجة إلى إيناس الميت بالضوء الطبيعي في قبره ، وبلوغ شعاع الشمس في أوقات معينة إلى قدس الأقداس ، كل ذلك كان عاملاً هاماً في تطوير الفلك .

الحساب :

كان الحساب هو العلم الذي قفز في مبدأ الأمر قفزة كبرى ، لأن الأوضاع الاقتصادية كانت تحتم على الكهان القابضين على نواصي المعابد أن يقوموا بعمليات حسابية للوارد إلى المعبد والصادر عنه .

التحنيط :

في ظل الدين والعقيدة المصرية القديمة ، نشأ التحنيط ولقد نشأ التحنيط في مصر القديمة أول الأمر ، والغاية منه إطالة الحياة ، لأن المصري القديم ، وهو على ما نعرف كان خالي الذهن من أية ثقافة أو أية فكرة علمية ، كان يعتقد في سداجة أن الجسم ما دام يحتفظ بشكله الخارجى ، فإنه حى حياة قد تختلف عن حياتنا ، ولكنها مع ذلك حياة ما . ومن هذا المنطق نشأ الاعتقاد بوجود عالم ثان . وما هذا

الاعتقاد إلا إيمان بطول الحياة ، أو هو محاولة لإطالتها . فعقيدة العالم الثاني ، وعقيدة الطوفان كلتاها نشأتا من عقائد المصريين الأولى . فنشأت العقيدة الأولى - تواجد العالم الثاني - من رغبة المصري في إطالة الحياة . ونشأت العقيدة الثانية - الطوفان - من ظاهرة فيضان النيل .

وفي عمليات التحنيط كانت تزال عن الجسد الميت كل الأعضاء الداخلية باستثناء المخ ، ثم يملأ التجويف بالتوابل والراتينج ، ثم يلف الجسد في كتان رقيق . وأحياناً يوضع قناع من الجبس المذهب فوق الوجه وتوضع الجثة في تابوت خشبي على هيئة صندوق . وكان ذلك كما هو في اقدم مومياء عرفت ، ويرجع عهدا إلى الأسرة الثالثة . أما في الدولة الوسطى ، فقد كانت طرق التحنيط للأفراد غير المتمين للطبقة العليا غير متقنة . إذ كانت تزال الأعضاء الداخلية بما في ذلك المخ ثم تحفظ هي والجسد في الجير الحى أو في الملح . أما بالنسبة للطبقات العليا فقد اتبعت طرقاً في التحنيط أغلى ثمناً ، تقوم على استخدام الصمغ والتوابل والراتينج ، وقد حققت الدولة الحديثة (١٧٠٠ - ١١٠٠ ق.م) تقدماً كبيراً في طرق التحنيط فشاعت طرق جديدة في محاولة جعل المومياء تظهر بمظهر الشخص الحى ، وذلك عن طريق حشو الوجنات وغيرها من أجزاء الوجه والجسم بالطمي ، يدفع إلى الداخل عن طريق فتحات تعمل في الجلد . وبعد ذلك يطلى وجه الميت بالألوان . ولقد ذكر هيرودوت ، أن المدة التي

تستغرقها عملية التحنيط في المعبد هي سبعون يوماً . ويظن أن التحنيط نفسه كان يستغرق أربعين يوماً . وأن الثلاثين يوماً الأخرى كانت لازمة للنف المومياء بالفائف وربطها . إذ أن كل رباط يلف ، كانت تتلى خلاله صلوات وطقوس معينة . ولقد تأيد هذا الظن عن طريق أثر تذكاري لرمسيس الرابع . وفي الصورة جثة رمسيس الثاني صاحب معبد أبو سمبل محفوظة بالكامل بالمتحف المصري .

التعدين :

لاشك أن اكتشاف المعادن كان هو التقدم التكنيكي الأساسي الذي صاحب نشأة الحضارة وتقدم الزراعة وقيام المدن . ولقد اتخذت المعادن بداءة للزينة . ثم صنعت منها أدوات معدنية ومعدات أدت إلى تغيير كيني جديد في سيطرة الإنسان على محيطه وبيئته . . وكان من بينها الأزميل ، أداة الفنان والنحات . .

المعمار :

يستدل من كتابات « ميس موري » في كتابها (مصر ومجدها الغابر) أنه كان للفراعنة تخطيط متقدم في فن البناء وهندسة المدن والمعابد والأهرامات . فإذا ما تعرضنا للمعمار المصري القديم في عصر الحضارة ، وجدنا فنا له أسسه ومشاكله العديدة التي ووجهت بذكاء كبير ومعرفة غير بسيطة . ويتحتم هنا الإشارة إلى إحدى صعوبات المعمار الأساسية

في مصر، ونعني بها التحرك السنوي للأرض نتيجة الفيضان . ولقد كان من الطبيعي أن يحاول المهندسون القدماء تجنب هذه المشكلة، بإقامة المباني في الصحراء وعلى مقربة من سفح الصخور منعاً لتسرب الماء مثل (معبد أبو سمبل) ، وإن لم تكن تلك قاعدة عامة . وتشهد المعابد التي قاومت ضغط الفيضان أكثر من ثلاثة آلاف عام، بأن وسائل المهندسين المصريين القدماء قد صادفها توفيق رائع . كذلك فلقد توصل المعماري المصري القديم ، إلى صنع القبوة المستديرة في البناء منذ عهد الأسرة الثالثة . ومنذ الأسرة الثالثة أصبح استعمال الحجر في البناء عاماً وشائعاً في الأهرامات والمعابد . وفي عصر الأسرة الرابعة كان المهندس المصري قادراً على بناء معابد من الجرانيت . وإن الجهود التي كانت تبذل لانتراع الأحجار الجيرية والرملية الجرانيتية، وحتى أحجار البازلت من موطنها لتدل على مستوى راق جداً من الخبرة الفنية . حتى توجت تلك الأعمال بنحت المعابد في صميم الجبل ذاته، دون حاجة إلى قطع الأحجار وتشوينها وتشكيلها كما في «معبدى أبو سمبل» وتمثالهما الرائعة . وكان ذلك يستلزم تسوية الجبل لنحت التماثيل، وحفره على شكل مغارة صناعية لبناء المعبد ذاته، ومن داخله قدس الأقداس . ويقول المتخصصون إنه ليس لديهم اليوم معلومات واضحة، عما إذا كان المعماريون المصريون يضعون الرسوم التصميمية في بناء المعابد قبل بدء العمل؛ فإما أن تكون هذه الرسوم التصميمية قد ضاعت أو أنها لم توجد أبداً . ولو صح الاحتمال

الأخير، لكان أمراً مدهشاً حقاً . . إذ معنى هذا أن المهندسين كانوا يعتمدون على ذاكرتهم في حفظ قائمة ضخمة من المقاييس والمواصفات .

الصناعة :

مع زيادة فائض الإنتاج الزراعى ، ازدهرت التجارة والصناعة والتعدين، فكان النحاس ينجم وكان الحديد يستورد وكان الذهب يستغل بكثرة على طول الضفة الشرقية للنيل حتى بلاد النوبة . وعرف المصريون في عهد الأسرات الأولى ، كيف يصنعون البرونز بمزج النحاس بالقصدير ، وصنعوا منه بعدئذ أدوات وآلات تفيد في الزراعة والصناعة ، ثم محارط وأزاميل ومثاقيب تثقب أقمسى أحجار الديوريت ، ومناشير تقطع ألواح الحجارة الضخمة لصنع التوابيت ونحت التماثيل . كانوا على مقدرة فنية رائعة ، هؤلاء الذين تفصل ما بيننا وبينهم آلاف السنين حتى ليقول « بسكل » : « إذا فاضلنا بين قدرة المصريين الفنية وقدرتنا نحن ، تبين لنا أننا كنا قبل اختراع الآلة البخارية ، لانكاد نفوقهم في شيء » . ولقد كان فن الهندسة عند المصريين القدماء أرقى من كل ما عرفه منه اليونانيون أو الرومان . . أو حتى ما عرفته أوروبا قبل الانقلاب الصناعى ، ولم يتفوق عليهم فيه إلا عصرنا الحاضر .

ولعل الصور والنقوش البارزة التى خلفتها الأسرة الثامنة عشرة - التى من بين ملوكها ملكنا العظيم رمسيس الثانى - خير دليل وبرهان على ذلك التفوق المبرر .

الفن :

لا جدال في أن الفن كان أعظم عناصر الحضارة الفرعونية القديمة . إذ وجد في مصر وفي عهد لم تتبلج عنه شمس للحضارات بعد ، فن قوي ناضج يكاد يكون أرقى من فن أية دولة معاصرة . ولقد كان ما امتازت به مصر في أول عهودها من عزلة وسلم ، ثم ما تدفق فيها بعدئذ من مغامم الحرب في عهود ملوكها الشجعان مثل تحتمس الثالث ورسيس الثاني ، ما أتاح لها الفرصة المواتية والوسائل الكفيلة لتشييد المباني الضخمة ونحت التماثيل الرائعة والمتينة . كذلك البراعة في عديد من الفنون الأخرى كادت تلمس حد الكمال في ذلك العهد السحيق . ولعل ذلك يكون مبعث حيرة وشك للقارئ في البحوث والنظريات التي يضعها العلماء عن نظريات التطور والرقى البشرى ، إذا ما نظر إلى ما أبدعت يد المصري القديم وما أخرجت قريحته . . وكانت العمائر — لاشك أفخم الفنون المصرية على الإطلاق ، وذلك لما جمعت بين دفتيها من روعة وضخامة وصلابة وجمال ومنفعة وكانت بدايات هذا الفن المعماري الرائع تابعاً من توابع العقيدة الروحية عند الفراعنة عندما راحوا يبحثون للروح عن مكان تسكنه ؛ فكان القبر . . وما دامت الروح ثم القرين من بعد ، على درجة من التبجيل والاحترام ، فلا بد للفن من أن يزين وينقش . ولقد كانت أحجار البناء التي تجلب من أماكن بعيدة أغلى وأثمن من أن تستخدم في تشييد المنازل ، ولهذا كانت من مواد الترف الخاص بالكهنة والملوك .

وحتى النبلاء أنفسهم، فلقد آثروا المعابد بأكثر قسط من الثروة وبأحسن مواد البناء، ولعل ذلك سر عفاء البيوت والقصور القديمة وبقاء المعابد والمقابر حتى أيامنا هذه. وكان خير سجل لذلك بعد الأهرامات، تلك المجموعة الفخمة من الأعمدة والبنىات عند الأقصر والكرنك وعلى الامتداد حتى «أبوسمبل» عند النوبة، وامتداداً في التاريخ من تميمس الأول حتى رمسيس الثاني وغيرهم فيما بين الأسرة الثانية عشرة والأسرة الثانية والعشرين.

وكان الفنانون القدماء، مثاليين عظاماً يجانب كونهم معماريين من الطراز الأول، فلقد أنشأوا في بدايات حياتهم تماثال «أبي الهول» منذ نحو ستة آلاف سنة. كذلك ما أروع تماثال «خفرع» المصنوع من حجر الديوريت ثم تماثال «شيخ البلد» و«الكاتب» ثم تبعاً، تماثيل الملوك، من ناحية الإبداع والاتقان الفني الذي ليس بعده إتقان، وجميعها من تماثيل الدولة القديمة. وإذا ما نظرنا في آراء المحدثين، فإننا نجد أن النحت في نظر «البيركامى» (١٩١٣ - ١٩٦٠ م): «يعتبر من أعظم الفنون جميعاً وأشدها طموحاً، إذ هو يسعى جاهداً في سبيل العمل على تثبيت الصورة الإنسانية العابرة أو تخليد الوجه البشرى الزائل، فوق الأبعاد الثلاثة المعروفة... ويعبر «كامى» عن ذلك بقوله: إن النحت يحاول «رد فوضى الحركات إلى وحدة الطراز». ولئن كان في النحت لا يستبعد عنصر المشابهة - لأنه في حاجة ماسة إليه - إلا إنه لا يبحث أولاً وبالذات

عن محاكاة الواقع ، بل هو ينشد الإيماءة والسحنة والسياء والنظرة الخاوية لأن هذه جميعها تلخص حركات الناس ونظراتهم . فالنحت لا يرمى إلى التقليد أو المحاكاة ، بل هو ينشد التعبير والطرز ، أعنى أنه يحاول أن يحتبس في تعبير قوى حافل بالمعاني ، تلك الصورة البشرية الزائلة ، صورة الأجسام العارمة والنفوس المضطربة في شتى المواقف الخالدة ، التي تحمل في طياتها معاني السكون والكمال ، فإنه يشيع الهدوء — ولو إلى حين — في تلك القلوب البشرية الفائرة بحمى القلق والتوتر والحركة المستمرة . . وينظر العاشق الحزين إلى تلك التماثيل الساكنة ، فيتملى في محيا المرأة وجسدها ، ذلك العنصر الإلهي الخالد الذي يبقى منها بعد انحلال المادة وفناء الجسم) .

ونغضى مع النحت المصرى القديم فنجد آيات فنية أخرى من حجر ومن خشب ، ومن نحاس ومن ذهب . ولكن يذكر التاريخ أن منتجات فن النحت المصرى بعد عهد الأسر الأولى لم تصل إلى ما كانت عليه في عهدها إلا بعد أن مضت عليها قرون عدداً . وإذا كانت معظم التماثيل إنما أبدعت أصلاً للمعابد والمقابر ، فلقد كان للكهنة الدور الأول في تقرير الأنماط التي يجب أن يلتزم بها الفنان في إبداعه . . . ويتحكم الكهنة في ذلك ، ويقول التاريخ إنه من هنا . . تسربت إلى الفن النزعة الدينية المحافظة فجم على قلب الفن بسببها كابوس التقاليد ، وكان سبباً في تدهوره . . حتى بلغ الزمان مبلغ الأسرة الثانية عشرة وملكها

الأقوياء، فعاد للفن انتعاشه، واستعاد قوته وفاق الفنانين في العهد الأخير ما كان عليه أسلافهم الأولون براعة.. ثم نكسة أخرى من نكسات التاريخ المحتومة على الأمم.. جاء الهكسوس غزاة لأرض مصر.. وكان حتماً أن ينعدم الفن المصري إلا قليلاً وعلى مدى ثلاثة قرون.. وللتاريخ دورات.. ينهض الشعب على ضفاف النيل مرة أخرى، ويبعث الفن من جديد منتفضاً قوياً، فيخرج للزمن تماثيل تحتس الثالث ورمسيس الثاني الخالدة بروعتها، الباقية بعظمتها، وغصت أركان المعابد جميعاً بآيات الفن وإشراقاته، ولعل آية من آياته تتجلى بدقة في تماثيل رمسيس الثاني على اختلافها ومن بينها تماثله وهو يقدم القربان للآلهة جثوماً، لا يكاد الإنسان يصدق أنه يفعله أو أن الفنان يخرج به. ثم معجزته، التي نحتها في صخر جبل «أبو سمبل»، فنانون يعجز القلم في القرن العشرين عن أن يوفيهم حقهم من تقدير.. على أن التاريخ يعود فيذكر أن جلوة النهضة الفنية لم تلبث أن خمدت بعد عهد رمسيس الثاني، وظل الفن المصري من بعده قروناً، كثيرة يقنع بتكرار الأعمال والأشكال القديمة..

لقد تعاون الدين المصري مع الثروة المصرية على الإيجاء بالفن وإيمانه في بعض العصور، كما أدى ضياع الإمبراطورية أحياناً إلى إيمانه. فلقد كان الدين يقدم للفنانين الحوافز والأفكار ويوحى إليهم بروائع الفن.. والكهنة في المعابد هم الأئمة في ذلك.

ذلك؛ لأن الفن كان في خدمة الدين والعقيدة منذ القدم، يستلهم روحه ومادته من المعبد في كل زمان ومكان . فلقد بنى الأقدمون الأهرام منذ ما يزيد على خمسة آلاف سنة، وكان هدفهم الأعلى الدين والعقيدة، لا الفن والعمارة . ذلك لأن الاعتقاد السائد آنذاك أن في كل جسم حي تستقر قرينة - يسمونها كا - لا تموت بموت الجسم . ومن ذلك المعتقد كانت تدفن مع الميت حاجاته من طعام وغذاء وكساء .

ولقد قام الفن بدور غير منكور في حياة الفراعنة القدامى، حتى ليقال حقيقة: إن الفن لم يخدم الإنسان في عصر من العصور بمثل ما نخدمه وقدم هؤلاء المصريين الأول . فلقد كان الفنانون يتقشون على الحجارة صوراً ورسوماً ، ثم عبارات سحرية تميل عند اللزوم تلك الصور والرسوم حية قادرة على أداء كل ما يحتاجه الميت من خدمات كأنها أجسام وأشياء حية حقيقية . هذا بجانب تحنيط الجسوم طبعاً .

ولم يكن الملوك في بلد من البلاد بمثل الكثرة التي كانوا بها في مصر القديمة ، ولذلك فالتاريخ يضمهم جميعاً في أسر ، تشمل كل أسرة ملوكاً من بيت واحد أو ذرية واحدة تنشأ عن أصل واحد . وكان كل ملك من ملوك ذلك الزمان الغابر يتنافس سابقه ولاحقه فيما يقدم وما يترك

للأجيال القادمة من آثار تتحدث عنه وكانت خير وسيلة له في ذلك ،
الفن بشتى مناحية . انظر إلى قائلهم :

كنت رجلاً زرع البنور ، وأحب إله الحصاد . .

وحباني النيل وكل وديانه . .

ولم يكن في أياى جائع ولا ظمآن . .

وعاش الناس في سلام بفضل ما عملت ، وتحدثوا عني . .

يبقى بعد أن قمنا بجولتنا في وديان التاريخ نتلمس العوامل والأسانيد
التي ارتكنت إليها الحضارة المصرية في قيامها وازدهارها . . وكذلك
ما كان عاملاً مساعداً هاماً لأى ملك أن يحكم ويبنى ويشيد ويعمر
ويترك الآثار الدالة عليه . . أقول، يبقى أن نستعرض باختصار قصة
حياة ذلك الملك، الذى تم في عهده بناء معابد «أبو سمبل» ونسب له
ولزوجته الجميلة أيضاً ؛ أو جميلة الجميلات كما كانت تسمى . . ملكنا
هو رمسيس الثانى أوسيزوستريس . . والملكة هي نفرتارى . . .

• • •

يعد رمسيس الثانى شخصية من أروع الشخصيات في التاريخ ،
يبدو الإسكندر إلى جانبها إنساناً لاقيمة له ولاخطر . لقد عاش هذا
الملك تسعة وتسعين عاماً جلس منها على عرش مصر سبعة وستين ،
وأنجب من الأبناء مائة وخمسين وتراه في بعض تماثيله عند الشاطئ

الغربي من الأقصر) تمثالاً كان ارتفاعه في يوم من الأيام ستاً وخمسين
 قلماً ، وقد حرص علماء نابليون على قياس كل جارحة فيه فقدروا
 طول أذنه بنصف قدم وعرض قدمه بخمس أقدام وقلروا وزنه بألف طن
 . . ويقول « ول ديورانت » : وكان حقاً على نابليون أن يحياه بما حيا
 به الفيلسوف « جوته » فيما بعد إذ قال : « ها هو ذا رجل » .

ويعتبر رمسيس الثاني صاحب شخصية خيالية عجيبة . . كما أنه
 يعد آخر الفراعنة العظام . ويقول « ول ديورانت » في كتابه : قصة
 الحضارة . . إنه قلماً عرف التاريخ ملكاً أبهى منه منظراً . فقد كان
 وسيماً شجاعاً ، أضاف إلى محاسنه ، إحساسه في شبابه بتلك المحاسن . ولم
 تكن جهوده الموقفة في الحرب ، ليضارعها غير مغامراته في الحب .

هل كان رمسيس الثاني في ذلك ، يتمثل بقول شاعرهم الفرعوني الذي
 كان يحضن على اغتنام الفرصة قبل فواتها ويدعو لإشباع النفس من
 السرور قبل أن تجرع كأس الردى . . قال الشاعر الفرعوني . .

وزد في مباحجك أكثر من ذى قبل .

ولا تترك قلبك يدبل .

وسر وراء رغباتك وما فيه الخير لك .

وهي أمورك على ظهر الأرض .

حسب ما يأمر به قلبك أنت .

حتى يأتيك يوم النحيب .
 حين لا يسمع الموتى نحيبهم .
 وحين لا يصنئ من في القبور إلى حزنهم .
 واحتفل بيوم السرور .
 ولا تمل منه .
 انظر ، ليس ثمة من يأخذ أمتعته معه .
 أجل ، ولا يعود ممن ذهبوا إلى هناك أحد . .

وبعد أن نحي رمسيس الثاني هذا عن العرش ، أنخأ له ذا مطالب
 جاءت في غير وقتها المناسب ، سير حملة إلى بلاد النوبة ليفتح ما فيها
 من مناجم الذهب وانتصر في الحروب الآسيوية وحطم الأحلاف التي
 أقيمت ضد مصر في عام ١٢٨٨ ق . م ، ولربما كان من نتائج تلك
 الحملات التي قادها في حروبه الآسيوية أن جىء إلى مصر بعدد كبير
 من أسرى الحرب . . كذلك فإنه كملك منتصر أمر أن تخذ انتصاراته
 بغير قليل من المبالغة والتحيز ، على خمسين جداراً أو نحوها . .
 أنطق فنانون عصره أحجارها بالتاريخ والفن وكل عمل جليل . ولعل
 جدران المعابد كانت بذلك مراكز إعلام وتوثيق ودعاية لحاضره وللمستقبل ،
 قريبه والبعيد، حتى يومنا هذا، وما بعد يومنا . ومن معالم تخليده لنفسه ،
 أنه أمر أحد الشعراء في عصره أن يشيد بذكره في ملحمة شعرية لم تزل

تردها البرديات المحفوظة بالمتاحف . ثم يقول « ديورانت » .. ولقد كافأ رمسيس الثاني نفسه على انتصاراته وفتوحاته وأعماله العظام تلك ، بوضع مئات من الزوجات . وخلف بعد وفاته مائة من الذكور وخمسين من الإناث . . كما أنه تزوج عدداً من بناته حتى يورثن عظمته لأبنائهن منه . . ثم إن أبنائه وأحفاده وذرياته جميعاً ، كانوا من الكثرة بحيث تألفت منهم طبقة خاصة في مصر بقيت على هذا الحال أربعة قرون وظل حكام مصر يختارون من تلك الطبقة أكثر من مائة عام .

ويستطرد المؤرخون . . والحق أنه كان جديراً بهذا كله ، فقد حكم مصر كما يلوح حكماً موقفاً . ولقد أسرف في البناء والمعمار إسرافاً كان من نتائجه أن نصف ما بقي إلى اليوم من عمائر الفراعنة يعزى إلى أيام حكمه . . فهو الذي أتم بناء البهو الرئيسي في الكرنك ، وهو الذي أضاف أبنية جديدة إلى معبد الأقصر . . وهو الذي شاد ضريحه المعروف بالرمسيوم في غرب النهر عند الأقصر ، كما أنه هو الذي أتم المعبد المحفور كمغارة هائلة في جبل «أبوسمبل» في صخر الحجر الرملي النوبي الصلب ، وهو الذي نثر تماثيل له مختلفة الأحجام والمادة ، على طول البلاد وعرضها . . أعمال كثيرة لاشك ، ثم أسلم الروح في عام ١٢٢٥ ق . م . وهو في التاسعة والتسعين من عمره بعد عهد يعد من أشهر العهود في التاريخ . .

وكانت خاتمة القصة هكذا . .

يعود بنا التاريخ لثرى الخاتمة ، إلى سنوات وسنوات تراجع إلى الوراء مئات وآلافاً إلى نحو ٣١٧٢ سنة مضت ، هناك ، كان وجوم فى القصر الفرعونى الكبير المطل على نيل طيبة (الأقصر) . حزن ودموع بعد صبيحة خافتة من نقرتارى ، الملكة التى كانت تحكم قلب زوجها . . . لقد مات رمسيس العظيم . . . وانطلقت الآلهة الحزينة الملتاعة من أبواب القصر الملكى إلى خارج أسواره، إلى الشعب فى العاصمة والمدن والقرى.. شمالاً وجنوباً على طول البلاد وعرضها .

لقد مات فرعون القوى العجوز . . . وبسرعة يحتمد ١٥٠ ولدأ وبتأ لرسيس الثانى من حول جثمانه ، ويختارون ابنه الثالث عشر من بتاح ، إنه أذكاهم . وبسرعة البرق تلتف حوله الحاشية . لقد مات فرعون، فليحى فرعون الحديد . ولكن القصر ما زال حزينا تجلج رعوس نسائه (النيلة الزرقاء والسوداء) حداداً وحزناً . إن فرقة المنحطين جاءت من المعبد وبدأت تحنيط جثة رمسيس فى عملية تستغرق سبعين يوماً . ثم دفنوه مع كل المهابة ، بعد أن عبروا به النهر إلى الغرب . . إلى وادى الملوك . . . واليوم ترقد مومياء رمسيس الثانى مع مومياء ٢٧ من فراعنة مصر وملكاتهما ، فى حجرة واحدة فى الدور الثانى من المتحف المصرى فى قلب القاهرة . ولكن كيف جاءت ؟ . يستطرد الراوى فيقول :

بعد تولى من بتاح الملك ، أهب الشعور القوى، فى مضر وظره أهل

إسرائيل في خروجهم التاريخي عبر سيناء . . ثم يتوالى من بعده الحكام والكهنة ينهبون خير الأرض . إن كهنة آمون يستولون باسم معابده على كل ذهب النوبة وما أكثره ، ويجوع الناس ويشور الشعب ويسطر اللصوص على مقابر وادي الملوك . وتأتي الأيام السود مع المجاعة . ويختلف لصان هما « باسر » حاكم شرق طيبة « وباروعا » حاكم غربها . الأول يتهم الثاني بنهب المقابر فيقتضى ذلك أن يحقق رمسيس التاسع الأمر . يأتي بعده الفرعون ، الكاهن : حريجور ليؤسس الأسرة الواحدة والعشرين . ويجمع ما نهب من أجساد وتوابيت وأشياء أخرى . كان ذلك في عام ١٠٩٠ ق.م. ويضعها في مقبرة سيتي ، ثم تتغير خبيثتها إمعاناً في التضليل فتدخل إلى مقبرة « أمنوفيس » ، ومنها إلى خبيثة في غموض جبل القرنة بجوار الدير البحري .

ولعل شاعرهم الفرعوني كان يعبر عن مثل تلك المفاصد حين قال :

لمن أتحدث اليوم ؟
 الإنحوة أشرار .
 وأصدقاء اليوم ليسوا أصدقاء حب
 لمن أتحدث اليوم ؟
 القلوب قلوب لصوص .
 وكل رجل يغتصب ما عند جاره .

ويعمر زمن طويل .. طويل جداً .. إلى ٩٧ سنة مضت حين
تعثر أسرة عبد الرسول على الحبيثة .. عشرات المومياة للملك وملكات
وبرديات ..

ويكتشف العلماء : بروكش باشا (الألماني) وأحمد كمال باشا
(المصري) وماسيرو (الفرنسي) ، مومياة رمسيس الثاني وينقلونها
إلى القاهرة، ثم إلى المتحف المصري في بولاق آنذاك .. وقبل أن يقيم
« ماريت » متحف القاهرة الحالي من ٦٩ سنة . ثم تتحرك مومياة
رمسيس الثاني إلى مدفن سعد زغلول بالقاهرة في ظروف خاصة .. ثم
تعود ثانية إلى المتحف المصري الحالي ، حيث توجد اليوم .

تلك خاتمة قصة رمسيس الثاني .. قصة ملك يستحق كل تقدير
وإعجاب لما ترك في الدنيا من آثار وعمار ..

ولكننا يجب ألا نغضي ، قبل أن نعرف كيف توصل العلم إلى فك
طلاسم نقوش الأحجار ولغة القدماء الفراعنة ، فذاك ولاشك مفتاح
الكشف عن عظمتهم والتعريف بمحضارتهم ..

يقول « ول ديورانت » : إن علم الآثار المصرية يعتبر نتيجة ثانوية
من نتائج حروب نابليون الاستعمارية، إذ أنه لما قاد الحملة الفرنسية على
مصر في عام ١٧٩٨ م . اصطحب معه طائفة من العلماء ليدرسوا مصر
ويسعوا لفهم التاريخ فهماً أوفى وأفضل مما كان يفهمه المؤرخون
وقتئذ .

ولقد وضع هؤلاء العلماء كتاباً باسم « وصف مصر » في الفترة ما بين ١٨٠٩ حتى ١٨١٣ وأعدوه للمجمع العلمي الفرنسي، كأول خطوة هامة خطاها العلماء في دراسة الحضارة القديمة .

ولكنهم وإن يكونوا قد وفقوا في وصف مصر وآثار حضارتها القديمة حقاً ، وصفاً شكلياً، إلا أنهم ظلوا سنين عدداً عاجزين عن فك طلاسم لغة الفراعنة التي بقيت في نقوش على الآثار المصرية . لكنهم كحفنة من علماء ، كانوا يمتازون حقاً بروح الصبر والبحث العلمي مما مكن أحدهم « شمبليون » من حل رموز الكتابة الهيروغليفية أو المصرية القديمة . ولقد عثر « شمبليون » آخر الأمر على مسلة مغطاة بهذه النقوش القديمة مكتوبة باللغة المصرية، ولكن في أسفلها نقوشاً باللغة اليونانية عرف منها أن هذه الكتابة ذات صلة ببطليموس وكليوباترا، وراح باجتهاده الشخصي يحاول تمييز بعض الحروف المصرية القديمة ومقارنتها بمشكلات لها ، على ما يظن ، من اللغة اليونانية . . . وهي وإن لم تكن محاولة أدت إلى نجاح كامل ، إلا أنها أكدت ضمناً أنه كانت لمصر القديمة حروف هجائية . . . وكانت محاولة على الطريق . . .

إلا أن النجاح الكامل في فك طلاسم اللغة الفرعونية، قد تأتى فعلاً حين عثر جنود نابليون على حجر كبير أسود قرب مصب فرع رشيد . . . ونقل الحجر . . . ودرسه « شمبليون » . . . ثم كان أن نطق الحجر بالسر

الأعظم لما طبق صاحبنا ما عرف من حروف هجائية قديمة، على رموز الحجر . . كانت عليه نقوش كتبت بثلاث لغات أولاها والهيروغليفية « وثانها « الديموطية » وهي الكتابة المصرية الدارجة؛ ثم الثالثة وهي اليونانية. واستطاع شميليون بفضل علمه للغة اليونانية وبعض الحروف الهيروغليفية التي عرفها من المسلة الأولى، وبعد جهد متواصل دام أكثر من عشرين عاماً، استطاع أن يحل رموز النقش وأن يستنطق الحجر أسراره لكي يبيح له بسر الحروف الهجائية المصرية القديمة بأجمعها . . وكان ذلك بداية لسبيل ممهدة للكشف عن عالم عظيم مفقود، وحضارة كبرى طمرها التراب. وجار عليها الزمان فطويت لحين، في عالم النسيان . . ولكنها بهذا الكشف عادت كتاباً مفتوحاً لكل قارئ، وعم الدنيا نورها المبهر من جديد، وعرفنا الكثير والكثير عن أجدادنا مما أسلفناه في هذا الباب . . بفضل حجر رشيد . . وما نطق به حجر رشيد، الذي يحفظ اليوم في المتحف البريطاني . .

وهكذا . . نطق الحجر . .

ثم ، موعد مع القدر

.. هكذا كان النيل رفيق الإنسان المصري القديم وباعث نهضته الأولى منذ ماض من الزمان بعيد . . وليس النهر سوى مائه . . وعظمة الأنهار بمقدار ما يجري فيها من المياه . والنيل — نهرنا — لاشك في عظمته ، وهو يجمع مياهه من مساحة واسعة من الأرض في الجنوب ، ثم هو يجري بما حمل مسافات طويلاً يروي ظمأ شعوب ، ويحيى موات أرضها ويبني فيها — وهو قد بنى في الماضي البعيد — حضارات . وما ارتبط قوم بنهر مثلما ارتبط المصريون على طول الدهور بنهر النيل . وهم قديماً عرفوا قدره حتى قلنوه وعبدوه . وهم تقديراً لأهميته ، قد عنوا بشئون الماء منذ أقدم العصور كما عنينا ، وما زلنا نحن اليوم . . ونحن لانكر أبداً أننا منحة من النيل الوفي الكريم . ونحن نقدر القول الذي قاله هيرودوت ، بأن مصر هبة النيل . ولكننا أيضاً نعتز بقول آخر قاله زعيم أفريقي كبير في الاحتفال بتحول مجرى النهر عام ١٩٦٤ وما قال إلا صدقاً . . (لو أن هيرودوت كان بيننا لقال قولاً أكثر بلاغة مما قاله قديماً) . لأن المصريين اليوم ، وإن كانوا الأخير زمانهم ، إلا أنهم فعلوا ما لم يفعله الأوائل . بنوا هرماء آخر أعظم وأجل نقماً . . بنوا السد العالي . .

والسد العالي ليس إلا علامة بارزة على طريق كبح جماح النهر والتحكم فيه . . وذلك طريق طويل بدأه قدماء المصريين منذ فطنوا إلى

استخدام مياه النيل في رى أرض مصر منذ فجر التاريخ ومن يوم اكتشفت فيه الزراعة فيسرت للحضارة من بعد ، سييلها . ولقد استطاع القدماء التحكم فعلاً في النهر وعرفوا كيف يبنون السدود والخزانات ، واتبعوا نظاماً للرى استمر من ذلك العهد حتى القرن التاسع عشر ، وهو نظام « رى الحياض » وفيه يترك ماء النهر في فصل الفيضان ليغطي أراضي الحياض بعمق متر ونصف المتر في المتوسط ولدة ٥٤ يوماً ، حتى إذا ما انخفض منسوب الماء في النهر عادت مياه الحياض إلى مجراه بعد أن تكون الأرض قد رويت استعداداً لظماً من بعد ، يطول ، وبعد أن يكون الغرين الذى حمله النهر من هضاب الحبشة قد أمد التربة بخصب جديد ، يعوضها عما فقدته في العام السابق . . والفيضان في حد ذاته سنوى ، فما إن يبلغ النيل أقصى درجات الانخفاض في منسوب المياه عند أسوان في شهر مايو ، حتى تظهر بوادر الفيضان ويعود المنسوب يرتفع حتى يبلغ ذروته في شهر أغسطس . وتلك اللروة تتفاوت من حين إلى حين ، نتيجة لاختلاف ظروف الضغط الجوى في القارة الأفريقية وعلى المحيطين الهندي والأطلسي ومعها تختلف حالة الفيضان ، فطوراً هو عال خطر يخشى أن تطفى مياهه على الجسور ، وطوراً هو منخفض شحيح يهدد الزرع والضرع ؛ ولكن النيل في معظم الأحوال وفي كريم لا يغضب إلا لماماً ولا يشح إلا ليعود إلى ما عرف عنه من جود ؛ فإذا مصر نخصبة وإذا بأرضها تهتر وتزبوا وتثبت من كل زوج . .

ولقد قلنا باتفاق غالبية العلماء على أن الزراعة عرفت أول ما عرفت في بلاد النوبة المصرية . . ولعل معرفتها ونجاحها ودوامها راجع لنهر النيل وفيضانه المنتظم . فهو بفيضانه هذا أوجد نظام الري المسمى «ري الحياض» وهو نظام نجح تماماً في مصر إذ هو على وفاق مع أحوال النهر وبتلائم مع مناخ البلاد . فلو أن الفيضان كان مبكراً أو جاء متأخراً عن الموعد الذي رسمته له الأقدار ، لما كان من السهل تطبيق هذا النظام . . فإذا كان الفيضان فرضاً في أبريل ومايو لما ناسب الغلات الشتوية كالقمح والشعير التي تكون في دور نضوجها . . كذلك لما ناسب الغلات الصيفية التي لم يجل بعد موعد زراعتها . ولو فرض وكان الفيضان يأتي في مواعده ، ولكن بدلاً من أن يعقبه فصل خريف معقول الحرارة ، أعقبه فصل شتاء بارد ، لما ساعد هذا على نجاح نظام الري الحوضي كذلك . . فاتفق مواعيد الفيضان إذن مع المناخ ومع الغلات الزراعية ومواسمها كان له الفضل الأول في نجاح الري الحوضي في مصر وفي دوام الزراعة فيها بدوام النظام ذاته ، ذلك الذي استدام منذ عهود الفراعنة الأولى وحتى القرن التاسع عشره نظاماً للري يعمل به في مصر ويضمن للزراعة دوامها ووفرة إنتاجها ، مما مهد لاشك وساعد كثيراً على قيام الحضارة الأولى وارتقاؤها ديناً وفناً وعلماً ومعماراً حتى لرى ثمرها على ضفاف النهر حتى اليوم شاهدة بذلك . ومن أعظمها معابد رمسيس الثاني في النوبة . .

ولقد عملت على طول ذلك التاريخ عدة اصلاحات في نظام الري

ويقصد توفير مياه النيل وإتقاذها من الضياع ليستفاد بها في أيام التحاريق
فشقت ترع وأقيمت قناطر وخزانات. ولكن برغم ذلك، فلقد اتضح أن المياه
التي تجري في النيل لا تكفي لبرنامج التحول من رى الحياض الذي اتبعه
أجدادنا الأقدمون منذ آلاف السنين، إلى رى دائم يوفر القوت لأبناء مصر
بعد أن زادوا عدداً. واتجه التفكير إلى البحث عن سبيل للاحتفاظ بمياه
النهر للإفادة منها في توسيع الرقعة المترعة. وكانت الفكرة الأولى أن
يخزن جزء من ماء الفيضان في منخفض في الصحراء، ثم اقترح في
عام ١٨٩٢ استخدام وادي الريان كخزان ثم رُئي إقامة سد يحجز المياه
إمامه فلا تنفذ منه إلا بمقدار وسداً لحاجة.

وما كان لمثل هذا السد أن يبنى إلا على أرض صحيرية لا تسمح بمرور
المياه من تحتها. كذلك ما كان لمثل هذا السد إلا أن يكون طويلاً
تكثر فيه العيون وتتباعده، فتسمح بمرور مياه الفيضان المتدفعة ويتوزع
الضغط على البناء الطويل. ولا بد أيضاً أن يقام في مياه غير عميقة حتى
لا يكون ارتفاع البناء سبباً في ضعفه. واقترحت لذلك عدة مناطق حتى
استقر الرأي أخيراً على أن يكون السد عند أسوان؛ ذلك هو خزان أسوان
الذي بديء في بنائه سنة ١٨٩٨ وعلى لأول مرة سنة ١٩٠٣ وكانت تعليته
سنة ١٩١٢، ثم تعلية ثانية سنة ١٩٣٣. ولقد كان لرجال الآثار
وعلمائها اعتراضات عند بدء التنفيذ خوفاً من أن تغرق المياه بعضاً من
مخططات القدماء الفراعين الشاهدة بمجدهم الزائل... فعلا أغرقت المياه

بعض قصر « أنس الوجود » القائم على جزيرة الفتين ، ولم تزل المياه تحيط به حتى بدىء اليوم في التفكير في نقله من مكانه حرصاً عليه وإبقاء له . . بعد أن تم بنجاح نقل معابد « أبوسمبل » إلى قمة الجبل بعملية هندسية فنية رائعة . .

• • •

أنقل معبد « أبو سمبل » ؟ . . نعم ، نقل البناء والتحت الذى تم في عهد رمسيس الثانى ، في بطن جبل من الحجر الرملى النوبى ومنذ قرابة الثلاثة آلاف سنة أو تزيد . . كان على موعد مع القدر في عام ١٩٦٨ ليتم نقل المعبد كاملاً غير منقوص ولم تهتك حرمة من حرماته . . وليبقى كما أراد له بانيه ، خالداً على الزمن يحكى قصة الأمس البعيد برسوم وكتابات وتمائيل وفن معمارى مانال منها جميعاً كمر الغداة ومر العشى ، ولم تمسها يد البلى ولا عبثت بها أفاعيل الزمان ؛ نعم لبقى ونقوشه تحكى قصتك أيها الملك . . ومن بين نقوشه ما أورده « ه . برستد » في وصف تفصيلي لمعبد « أبوسمبل » وما يعنى أن الإله بتاح قال : إنه قد خلق رمسيس الثانى عام ١١٩٤ ق.م بسيقان من الكهرمان وعظام من البرونز وأذرع من الحديد . . أليس ذلك دليلاً على العظمة والقوة يارمسيس . .

آى رمسيس الثانى . . أدار بخاطرك أن يأتى من بعدك بألاف السنين جيل ينهض كما نهضت بمصر ويشيد فيها معجزات خوارق . . أى رمسيس الثانى . . أساح خيالك في ليلة مقمرة هناك على ضفاف النهر

وأنت تغسل قدميك بمياهه لتطهر استعداداً للصلاة تقيمها في معبدك، أن يخلفك على أرض مصر خلف يشيدوا لأجيال كثيرة قادمة دعامة من دعامات وجودهم . . وبناء هو أضخم أبنية هذا القرن . . .
 أي رمسيس الثاني . . فعلت الكثير من أجل بلدك وحرابت وانتصرت وسجلت على جدران معابدك أخبار انتصاراتك وأخرجت اليهود من مصر خروجاً تاريخياً ودارت الأيام يارمسيس وأعقبك أرض مصر رجالاً فعلوا من أجلها الكثير . . وهم على منوالك ينسجون . . ولسوف يفعلون . .

أي رمسيس الثاني . . تقول كتب التاريخ إنك كافأت نفسك على أفعالك بالكثير وكان تفكيرك في أغلبه فردياً . . وبعد آلاف السنين عادت مصر ليحكمها مصريون . . ونجحوا . . وكان التفكير في المكافأة ، ولكنه اليوم تفكير جماعي ، فالمكافأة للجميع وللشعب أولاً وأخيراً ، وأحد بنود تلك المكافأة كانت السد العالي خلقاً لمصر الجديدة ، القوية العزيرة الكريمة . . وكما كنتم يارمسيس الثاني تعطون الإنتاج أهمية كبرى فلقد أعطينا نحن كذلك . وهل تقوى البلاد إلا بزيادة الإنتاج ؟ وهل يكون الشعب حراً عزيزاً إلا إذا ضمن مستوى المعيشة الكريمة ؟

كنت يارمسيس الثاني ، ملكاً عزيزاً لشعب عزيز متحرر ، أفيغضبك يارمسيس أن تفكر نحن أيضاً في مزيد من العزة والحرية . . أكاد أسمعك بأذن الخيال تقول ، لا . . حتى ولو كنت فداء لهذه العزة والحرية التي طالما عملت لها وحرابت من أجلها . .

نعم ، يا مليكنا العزيز القوي .. فكرنا في العزة والحرية وعملنا لها ، ولكن دون أن تكون أنت ضحية لهذا العمل . . وسرى ماذا فعلنا .

فلقد كان — من أجل مزيد من الرقعة المترعة ومن ثم ، وفرة في الإنتاج — أن نخطط لمشروع سد يفوق كل السدود ، فوق النيل الخالد الذي ظل منذ عهدك وحتى اليوم كالعهد به دائماً جواداً غير شحيح . . ويختار له مكان لا يبعد عن سد أسوان إلا بستة كيلو مترات . . تتعلق به آمال مصر والمصريين ويحجز جميع مياه النيل الزائدة عن حاجة الري أمامه ، بما في ذلك مياه الفيضان المحملة بالطمي والتي كانت تضيع هباء في البحر الأبيض المتوسط يوم يختلط العذب الفرات بالملح الأجاج . . ستستفيد أرضك يارميسيس ، أرض الرعامسة الفراعنة ، أرض مينا وأحمس العظيم ، أرض خفرع ومنقرع الفراعين ، أرض مصر وكل المصريين ، بكل قطرة ماء يمكن أن تروى أرضاً وتسقى زرعاً . . إذ ستكون سعة خزان السد العالي ١٢٥ مليار متر مكعب . . وسيكون السد — يارميسيس الثاني — مصدراً للوقود الرخيص ؛ فلقد زود بمحطات لتوليد الكهرباء تنتج نحو ستة مليارات من الكيلوات . هذا ؛ نحن يارميسيس الثاني . . وهذا ما فعلناه استمراراً للخلود ، ولكنه خلود الشعب لا خلود الفرد . . وكما قابلت يا ملكنا الكبير من اليهود من مؤامرات ومكائد فأخرجتهم إلى غير رجعة . . قابلنا نحن وما زلنا نقابل من الصهيونية والاستعمار مؤامرات ومكائد وعقبات في سبيل عملنا هذا الكبير . . ويا لها من عقبات . .

• أى رمسيس الثانى . . أكاد أراك أمامى مجسماً ، وأكاد أسمع صوتك وأنت تهز رأسك أسفاً تستعجنى على أن أحكى ما فعلوه وما فعلنا . . خيالى قادر على أن يبعثك أمام بصيرتى حياً وبشراً سوياً ، وسأحكى لك باختصار . .

• دُرست إمكانيات قيام السد العالى وتقرر أن يقوم البنك الدولى بالتنفيذ مشروطاً بمساعدة أمريكا وبريطانيا وقبلنا بحسن النية .
• عندما وضحت النيات والإيديولوجيات الخبيثة ، رفضنا ، فرفضوا التمويل ، وانسحبوا فى ٢٢ يوليو عام ١٩٥٦ .

• استمرراً لسياستك فى العزة والتحرر يارمسيس استرددنا قتالنا فى ٢٦ يوليو عام ١٩٥٦ ، لنبنى بأموالها السد العالى وكانت نهياً لهم .
• تأمروا علينا ، ثم حاربونا فى ٢٩ أكتوبر ١٩٦٥ ولكننا انتصرنا . . انتصر شعبنا مع قاداته كما انتصر شعبنا قديماً معك منذ قرابة الثلاثة آلاف من السنين .

• وفى ١٥ مايو ١٩٦٤ ، تحول النيل الخالد عن مجراه الذى عهدته به يارمسيس . . وهناك قريباً من معبدك «أبوسمبل» . . وظل النيل كما كان معلماً ومانحاً لشعب مصر ، معطاء جزيل العطاء . . وظل شعب النيل منبع العزم والصبر والتحدى والتصميم . . وغنى لعمله الكبير هناك على مشارف مجده القديم غنوته الشهيرة . . « قلنا هانبنى . . وأدى احنا بنينا السد العالى . . يا استعمار بنينا بايدينا السد العالى » وكأنما يقول لهم موتوا بغیظكم . .

أما سمعت أحفادك يارمسيس وهم يغنون ويرقصون ١٢

أما سمعت أحفادك يارمسيس وهم يحطمون الصخور ويجيلون الليل
نهاراً ، بعد أن أطلقت إشارة بدء العمل في بناء السد العالى ، تحقيقاً لإرادة
البناء وتوكيداً لفكرة البقاء في ٩ يناير عام ١٩٥٩ .

أكاد أسمعك يارمسيس وأكاد أراك تقول من بين شفتين مبتسمتين .
نعم نعم ، رأيتمكم وباركتكم .. من أجل هذا يارمسيس ، لم ننس نجميلك
على الدنيا ولم نهمل آثارك الباقية تحكى للزمن عن الحضارة والمجد .. إنها
أيضاً حضارتنا ومجدنا . . ومستقبلنا ، فالمستقبل جلوره في الماضى ،
ونحن من ماضينا نستمد القوة لحاضرنا . . ولسوف تشرق الشمس ثانية
يارمسيس .. ولم تقبل على أنفسنا ، نحن الجيل الحاضر والذي يكافح من
أجل مستقبله ، أن نتحمل أمام التاريخ مسئولية زوال آثارك الرائعة التى
تعد درة في جبين الزمن ورائعة من روائع الفن الخالد استطعت أنت بها
أن تتحدى الزمن ، كل هذه الآلاف من السنين . وإذا كان فنانونك العظام
قد صاغوها بما لديهم من ملكات خلاقية وإيمان بالفن عميق ، فما أحرانا
أن نصونها بكل ما أوتينا من قوة وقدرة .

وتعود نظراتك الثاقبة تنظر إلى عبر آلاف السنين وقد تخيلتك بشراً
سويّاً ، تسألنى وكيف ؟ وماذا فعلتم ؟ . وإليك القصة . .

● حين تبلورت في الأذهان تماماً فكرة إقامة السد العالى ، كان

غرق معبدى « أبو سمبل » وبقية آثار النوبة يتجسم أمام العيون والعقول
كواقع حزين .. وخشى المخلصون أن يلقى هذا المعبد الصخرى العظيم
مصير قصر أنس الوجود .. إنك يارمسيس بعبقرية فنك المتمثلة في الضخامة
الشاهقة، وفي النحت العملاق قد نثرت أرض الوادى من النوبة حتى البدرشين،
بآثارك أقيمت يوم أقيمت، لتفرض وجودها بفن عظيم مميز .. فن الرعامسة
الذى كان من فنون المرحلة المتأخرة في تاريخ مصر القديم .. ولكن
معبدك في « أبو سمبل » كان فريداً والحق يقال .. فلقد حشدت هذا
المعبد بالنقوش التي تمثل معاركك وحروبك وطموحك وارتفاع تطلعاتك، التي
انتهت بأن أعلنت نفسك إلهاً ومجدت ذاتك إلى جانب الآلهة التي أقيمت
لها هذا المعبد الكبير، حور أنختى رب المشرق، وآمون إله طيبة، وبتاح
إله العلم والمعرفة .. ولم تنس زوجتك الجميلة نفرتارى، فأقيمت لها على مقربة
وفي نفس الجبل معبداً كان أكثر رقة وإيجاء بالسلام، تظله الإلهة حتحور
ربة الحصب والنماء، يعلوها متها تاج قرص الشمس .. كل تلك الروائع،
كيف لا نحزن ونألم ونحن نتخيلها تغمرها المياه، فتغمر بعض معالم وجه مصر.
• في سنة ١٩٥٥ ذهبت بعثة من مصلحة الآثار إلى بلاد النوبة،
للنظر في إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الآثار الخالدة في هذه البلاد قبل
تنفيذ مشروع السد العالى .. وارتفعت الصيحة تنادى بالإنقاذ وتشير به
كضرورة لمعبد « أبو سمبل » فهو مثل الكولز يون لروما، والأكروبول لليونان.
إنه مثلهما تراث مشترك للإنسانية . وما بالعسير على عبقرية الهندسة والعلم،

أن تجد السبيل للإبقاء على آثار الفن، آثارك يارمسيس، إلى جانب مشروعاتنا الصناعية.. وكان الأمل والمهدف هو التوفيق بين غرض نافع للإنسان (السد العالي) وبين هدف من أهداف الروح عندما يرتفع الإنسان عن حاجاته المادية، وتشرئب روحه إلى ما وراء المادة من فكر وعلم وفن جميل..

● كانت عملية الإنقاذ - أيها الملك - فوق طاقة أمة تعمل لحاضرها ومستقبلها. ولكنك بما خلقت من آيات الفن أصبحت ملكاً للإنسانية جمعاء.. وانطلاقاً من هذا المبدأ لم نتردد أن نخرج بمشكلة إنقاذ آثار النوبة من محيطنا القوي إلى المحيط الدولي، وأن نجعل منها مسئولية عالمية يشارك في حملها، حماة التراث وحماة الفنون وسدنة الحضارة وحفظه التاريخ في كل بلد من بلاد العالم المتمدن. ووجهت مصر نداءً يخاطب الضمير العالمي للعمل على إنقاذ آثار النوبة، جاء فيه: «يوم يكتب لهذا المشروع النجاح، سيكون لكم ولكل جهد يبذل ولكل عقل فكر، سيكون لكل حكومة أو هيئة عامة أو خاصة أو مؤسسة أو شخص، فضل في العمل على تأييد الثقة في إمكان تعاون إنساني مثمر بين أمم الأرض جميعاً».

● ثم، في ٨ مارس ١٩٥٩ كان إجماع العالم المتحضر ممثلاً في منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة - اليونسكو - على البدء في الحملة الدولية لإنقاذ تراث النوبة. إذ لم تكن آثار النوبة هي معاينتك الستة فيها، ومن أهمها «معبد أبو سمبل» وإنما كانت عدداً عظيماً من

المعابد والحجيات الأثرية والآثار التاريخية المطمورة التي لم تستخرجها بعد يد الإنسان، وكذلك الآثار الإثنوبولوجية من عصر ما قبل التاريخ، والحفريات الجيولوجية التي لم تكن قد درست دراسة وافية في الماضي . . ثم فرجى من يهتم الأمر بأنها تفرق نهائياً وإلى الأبد بعد سنوات قليلة من بناء السسد العالى تحت مياه بحيرة ناصر . ومن بين الآثار الإنسانية في المنطقة كذلك كانت معابد فيلة وكلابشة ودندور وجرف حسين وأبو عودة وقرطاسى ووادي السبع وبيت الوالى والمهرقة والدر والدكة وعمدا ومقاصير أبريم وبعض الكنائس الأثرية . كما كانت هناك مقبرة بنوت . . ولكن بطبيعة الحال كان « معبدا أبو سمبل » هما أضخم الآثار ، وبالتالي أعقدها في عمليات الإنقاذ . .

● وبدأت الدراسات ، وبدأ معها الفكر الهندسى يقدم وسائله وأدواته إلى أن استقر رأى على الأخذ بمشروع نقل المعبدتين إلى قمة الجبل الذى أمرت مهندسيك وفنانيك يارميسيس يوماً مضى منذ بضعة آلاف سنة ، أن ينحتوا لك وزوجك معبدتين فيما . . على أن ينقلا بعد تقطيعهما إلى أجزاء تجاوزت الألف قطعة . واستخدم العلم — يامليكننا — في القرن العشرين بعد الميلاد — أقصى إمكانياته لحماية المعبدتين عند تقطيع منحور الجبل الذى يعلو المعبدتين . وغطيت واجهة كل معبد بالرمال وأقيم نفق اتصال من الألمنيوم يودى من الخارج إلى داخل كل معبد . . كذلك ، يارميسيس — تعاون العلم الهندسى مع العلم الأثرى على الاحتفاظ لكل قطعة بمعالها

وترقيمها حتى يسهل إعادتها إلى موقعها الطبيعي من البناء فوق الجبل .
 خطة قد تبدو بسيطة أمام همتكم العاتية . . همة من بنوا الأهرامات
 ونحتوا في الصخر الجلمود لهم معابد ومغارات . . وهي إن تكن بسيطة
 حقاً أمام التقدم التكنولوجي الهائل الذي بلغه إنسان القرن العشرين ،
 فكيف كانت تبدو منذ آلاف السنين ؟ الخطة ، كانت عبارة عن نقل
 جبلين ستغمرهما المياه إلى قمة جبلين بارتفاع ٦٥ متراً ، ستقف المياه عند
 سفحهما .

● كان العمل الذي انتهى قبل نهاية عام ١٩٦٥ عبارة عن تقطيع
 أحجار كل من الجبلين اللذين أمرت يارمسيس مهندسك أن يحضروا
 معبدك ومعبد زوجك كلاهما كتغارة رهيبة داخل الجبلين المتجاورين في
 «أبوسمبل» . وبدأ العمل بقطع أحجار كل من الجبلين ابتداء من القمة
 حتى نحو ٨٠ سنتيمتراً من سقفي المعبدين .

وبعد إزاحة الجبلين عن سطحي المعبدين بدأ العمل الدقيق ، وهونشر
 الأحجار المنقوشة والتماثيل والأعمدة في كتل منتظمة تزن كل منها ما يتراوح
 بين ١٠ و ٣٠ طناً .

● ولقد تم نقل معبدك الكبير يارمسيس إلى مكانه الجديد في يناير
 ١٩٦٦ ونقل المعبد الصغير في مارس ١٩٦٦ .

● في الموقع الجديد، الذي اختاره لك القدر استجابة لرغبتك في
 أبو سمبل

الخلود أيها الملك العظيم ، كان هناك في الوقت نفسه يجري العمل لتسوية الأرضية التي أعدت لاستقبالك من جديد ، ثم فرغ المهندسون وعلماء الآثار ، من تركيب المعبد من جديد في نوفمبر ١٩٦٦ . بمعنى أن الهدم تجاوز عامين والبناء تم في أقل من عام .

● بعد ذلك يارمسيس ، وتلبية لرغبة ألحت عليك في قديم الزمان ، وفي إبان عزك ومجده أن يكون معبدك كمغارة رهيبة محفورة في بطن جبل صنديد لتبقى شاهدة على عظمتك وروعة فنك . . تلبية لتلك الرغبة وتحقيقاً لها ، بقيت مهمة بناء جبل من فوق كل معبد منقول حتى ليبدو المعبدان وكأنهما منحوتان داخل الجبل كما كانا على عهدك . وكان لا بد من إقامة قبة خرسانية ضخمة على سقف كل معبد ليبنى فوقها الجبل المصنوع ؛ ولا تريد خداعك يارمسيس وإنما هو تحقيق لرغبتك بقدر الطاقة . وهكذا بدأ العمل في سبتمبر ١٩٦٦ في بناء قبتين خرسانيتين . . قبة كبيرة متوسط قطرها نحو ٢٠ متراً لمعبدك . وأخرى بنصف المقاييس لمعبد محبوبتك الجميلة أيضاً (نفرتاري) ؛ ثم بنى الجبلان فوق القبتين ؛ ثم بنيت الصخور ووضعت بشكل طبيعي استغرق سنتين أخريين من العمل الدائب ، عاد بعدهما المعبدان كما كانا في القديم . . وهما الآن يقفان — كما أردت لهما — في مواجهة المشرق يستقبلان أشعة الشروق كل صباح ، وفي ساعات معلومات وتواريخ محددة تنقل أشعة الشروق إلى أعماقهما ، فتضيء وجوه الآلهة الجالسة في قدس الأقداس . .

أى رمسيس الثانى العظيم . . ماذا تقول لو أنك بعثت حياً عن أحفاد لك
قلسوا واجبهم نحو تراث الآباء والأجداد، بمثل ما قلسوا واجبهم نحو
حقوق الأبناء والأحفاد . .

أى رمسيس الثانى العظيم . . ماذا تقول لو أنك بعثت حياً، عن أحفاد
لك لم ينسوا واجبهم نحو الفن والتاريخ والعقيدة الدينية والأعجاد التى غيرت
فن الإنسانية كيلها وتاريخها وأعجاد ماضيها العريق ، لم ينسوا ذلك قط فى
وسط سباقهم مع الزمن وفى وسط الالهفة الملهوفة على مصير الأحفاد ، من
ولدوا منهم ومن سيولدون .

أى رمسيس الثانى العظيم . . فى كم من السنين بنيت معبدك ،
وكم من الأموال الطائلة تكلف ذلك ؟ . . ولكن لا . . ماذا يهمنى اليوم
من أمر ذلك . لعل الأهم أن نحكى لك نحن أن قطع معبدى « أبو سمبل »
ونقلهما وإعادة بنائهما ، قد تكلف نحو ٣٦ مليون دولار . دفعت مصر
بعملتها المحلية ، ثلثها . ودفعت الولايات المتحدة ثلثها الآخر . وساهمت
دول عديدة ، وهيئات شتى وأفراد من رعاة الفنون فى العالم بثلثها الثالث .
وقد بدأت أعمال الإنقاذ الفعلية فى ١٦ نوفمبر ١٩٦٣ وانتهت رسمياً
فى ٢٢ سبتمبر ١٩٦٨ . . أى أنها استغرقت خمس سنوات . .

وهناك فوق « أبو سمبل » كان احتفال بانتهاء العمل . . وكانت مصر
عند جلالها فى ذلك الموعد الذى حدده القدر، والذى تلاقى فيه على
أبو سمبل

ربوة معبدى « أبو سمبل » ممثلو الهيئات الدولية والمنظمات الثقافية
 وحكومات عديدة من دول العالم، ليشهدوا معجزة من معجزات الحضارة
 الإنسانية القديمة تضافرت على إنقاذها حضارة الإنسان الحديث وعلمه
 وتقدمه التكنولوجى . .

أى رمسيس الثانى العظيم . . أليس موعداً مع القدر حقاً ، أن يعاد
 بناء أو نقل معبديك من بطن جبل إلى قمة جبل نقلاً واعياً كاملاً بحيث
 لم يتغير منهما أرنبة أنف ولا عقلة أصبع . . انتقالاً كاملين هما والإطار
 المحيط بهما . . أما الجو من حولهما فقد انفسح واتسع وغدا أرواح نفساً ،
 كما انكشف منظر الضفة الشرقية من النهر إلى أبعد مما اعتاده زوار معبدك
 من قبل يارمسيس .

أى رمسيس الثانى العظيم . . هل كنت تحلم بكل هذا الخلود . . وكل
 هذه الشهرة . . إنك ومعبديك حقاً ، كنتم على موعد مع القدر . .

ملحق أول :

المسيرة بالأرقام :

• • تكون الصخر :

الصخر الذى اتخذ فيه رمسيس الثانى معبدى «أبو سمبل» على شكل مغارتين رهنيتين تضربان فى بطن الجبل ، هو الصخر الرملى النوبى . وذلك الجبل والصخر ترسب أو تكون فى عصر من العصور الجيولوجية يسمى العصر الطباشيرى (Cretaceous) وهو عصر يقدر له الجيولوجيون استدامة زمنية على الأرض تبلغ ٧٠ مليون سنة تقريباً . أما ما يفصل بين زماننا هذا والزمان الذى تكون فيه ذاك الصخر أو الحجر الرملى النوبى ، فهو قرابة المائة مليون سنة تقريباً ، بحسب تقديرات « ب . ماربل » عام ١٩٥٠.

• • وجرى النهر :

النهر ، هو نهر النيل . وكان بداية جريانه فى شكله الحالى بعد أن اتحدت الأنظمة النهرية المختلفة ، وأصبح الكل فى واحد ، فى عهد جيولوجى يسمى بالعهد البلايوسينى (Pliocene) أو العهد الحديث المتأخر ، ولقد قدرت استدامة ذلك العهد بنحو ١١ مليون سنة . أما ما يفصل بين زماننا هذا ، والزمان الذى اتخذ فيه النهر سبيله المعروف لنا اليوم ، فهو قرابة العشرة ملايين سنة .

• ظهرت البشرية في أقدم أشكالها البدائية كما يقول بذلك العلم ، في العهد البليستوسيني أو العهد الأحداث (Pleistocene) منذ قرابة المليون سنة .

• ظهر الإنسان كما نعرفه اليوم ، منذ قرابة نصف مليون سنة ، كما يقول بذلك العلم الإنساني أيضاً .

• هاجر الإنسان إلى النيل وترك آثاره ، منذ قرابة المئة ألف عام .

• اكتشف الإنسان الزراعة على ضفاف النيل في بلاد النوبة المصرية ، منذ قرابة سبعة آلاف سنة .

• بدأ الإنسان يعرف الكتابة ويسجل نقوشه على الحجر ، منذ قرابة ستة آلاف سنة .

• • ونطق الحجر :

الحجر ، هو حجر رشيد . ولقد اكتشفه جنود الحملة الفرنسية على مصر في منطقة رشيد في فترة الحكم الفرنسي لمصر الذي بدأ في عام ١٧٩٨ .

واستطاع « شمليون » العالم الأثري الفرنسي ، فك رموزه وكتاباته الهيروغليفية في حوالى عام ١٨٤٠ . وبذلك عرفت أسرار الحضارة الفرعونية وكشف عن آثارها ، ومن بينها آثار رمسيس الثاني ومعبدته في « أبو سمبل » الذي بنى منذ ثلاثة آلاف سنة تقريباً .

•• ثم ، موعد مع القنر :

بلىء فى بناء السد العالى على نهر النيل بالقرب من أسوان؛ بعد
أن تحول النهر عن مجراه الذى عهدته رمسيس فى ١٥ مايو ١٩٦٤ .

نتيجة لهذا العمل الجبار . . تكونت بحيرة ناصر وغمرت كل بلاد
النوبة، بعد إتمام السد فى عام ١٩٦٩ .

حفاظاً على آثار بلاد النوبة تم إنقاذها، واحتفل بنقل معبدى «أبوسمبل»
فى ٢١ سبتمبر ١٩٦٨ .

• • •

ملحق ثان :

جدول للعصور والحقب الجيولوجية يبين المدى الذي قدره العلماء لطول كل عصر والاستدامة الزمنية له على الأرض ، ثم عدد ملايين السنين التي قدرت فاصلاً ما بين زماننا هذا وبين كل من تلك العصور طبقاً للتقديرات التقريرية التي أوردها وج . ب . ماربل ، في نوفمبر ١٩٥٠ . وحتى اليوم ، ما زالت تتأرجح الأرقام ما بين تقدير وتقدير لطول تلك العصور ، ثم لعمر القشرة الأرضية ككل . . ومن أحدث التقديرات ، ذلك الذي يُبلغها من العمر قرابة ٣٢٥٠ مليون سنة . ولا يخفى على أحد أنها اجتهادات بشر ، وتطورات علم إنساني ، ومع كل دفعة من تطور ، تقدير جديد . وفي النهاية يبقى العالم ، هو الله وحده . ولكنه برغم علمه الأكبر ، يحضنا على العلم والعمل . .

• • •

العصر	منذ ملايين السنين الماضية بالتقريب		الطول الزمني بملايين السنين للعصر ، أو استدامته على الأرض بالتقريب
البليستوسيني	من الآن وإلى واحد	مليون سنة	واحد مليون سنة
البلايوسيني	١	١٢	١١
الميوسيني	١٢	٢٨	١٦
الأولييجوسيني	٢٨	٤٠	١٢
الايوسيني	٤٠	٦٠	٢٠
الطباشيري	٦٠	١٣٠	٧٠
الجوري	١٣٠	١٥٥	٢٥
الثلاثي أو (الترياسي)	١٥٥	١٨٥	٣٠
البري	١٨٥	٢١٠	٢٥
الكربوني	٢١٠	٢٦٥	٥٥
الديفوني	٢٦٥	٣٢٠	٥٥
السيلوري	٣٢٠	٣٦٠	٤٠
الأوردوفيسي	٣٦٠	٤٤٠	٨٠
الكمبري	٤٤٠	٥٢٠	٨٠
ماقبل الكمبري	٥٢٠	٢١٠٠	١٥٠٠

المراجع العربية

- ١ - آن تيرى هويت ، ترجمة محمد عبد الفتاح إبراهيم ، مراجعة د . محمد صابر سليم ١٩٦٤ : الأنهار العظيمة في العالم .
- ٢ - د . حسين فوزى ، (مقال بجريدة الأهرام) ، ١٩٦٨/١٠/٤ : عيد من أعياد الحضارة .
- ٣ - د . عبد العظيم أنيس ، ١٩٦٧ : العلم والحضارة .
- ٤ - كمال الملاخ ، سبتمبر وأكتوبر ، ١٩٦٨ : (مقالات بجريدة الأهرام عن رمسيس الثانى وآثار النوبة) .
- ٥ - ول ديورانت ، ترجمة محمد بدران ، ١٩٥٠ : قصة الحضارة . الجزء الثانى - الشرق الأوسط .
- ٦ - د . لويس عوض ، (مقال بجريدة الأهرام) ١٩٦٨/١٠/٤ : ملحمة الصخور والمياه .
- ٧ - د . محمد محمود الصياد ، ١٩٦٢ : النيل الخالد .
- ٨ - محمد فتحى عوض الله ، ١٩٦٧ : قصة الحديد فى مصر .
- ٩ - محمد فتحى عوض الله ، ١٩٦٨ : قصة الفحم فى مصر .
- ١٠ - هامرتون ، أ . ، ترجمة نخبة من أساتذة الجامعات : تاريخ العالم .

• • •

المراجع الأجنبية

- (11) Amin, M.S., 1959, Summary report of the results of oil exploration in the Western Desert, Egypt : Cairo, P.G.A.
- (12) Attia, M.I., 1955, Topography, geology and ironore deposits of the district east of Aswan, Cairo, Egypt, G.S.
- (13) Ball, J., 1939, Contributions to the geology of Egypt, E.S.D.
- (14) Barron, T., 1907, The topography and geology of the Peninsula of Sinai (W.P.), Cairo, E.G.S.
- (15) Hume, W.F., 1925-1927, Geology of Egypt, vol. I and II, Cairo, Egypt.
- (16) Kotb, H.: Ghaly, E.L., and Mohamed Fathi Awadallah, 1965, Ch. Studies on Ayun Musa coal, G.S. No. 38.
- (17) Pomeyrol, R., 1968, Nubian Sandstone, The American Association of Petroleum Geologists Bulletin, vol. 52, No. 4 (April, 1968).
- (18) Sadek, A., 1926, The geology and geography of the district between G. Ataq and El-Galala El-Bahariya (Gulf of Suez) R.G.S.
- (19) Said, R., 1962, The geology of Egypt: New York, Elsevier Publishing Co.
- (20) Shukri, N.M. and R. Said, 1946, Contribution to the geology of the Nubian Sandstone, Part II, Mineral analysis : Bull. Inst. Egypt.

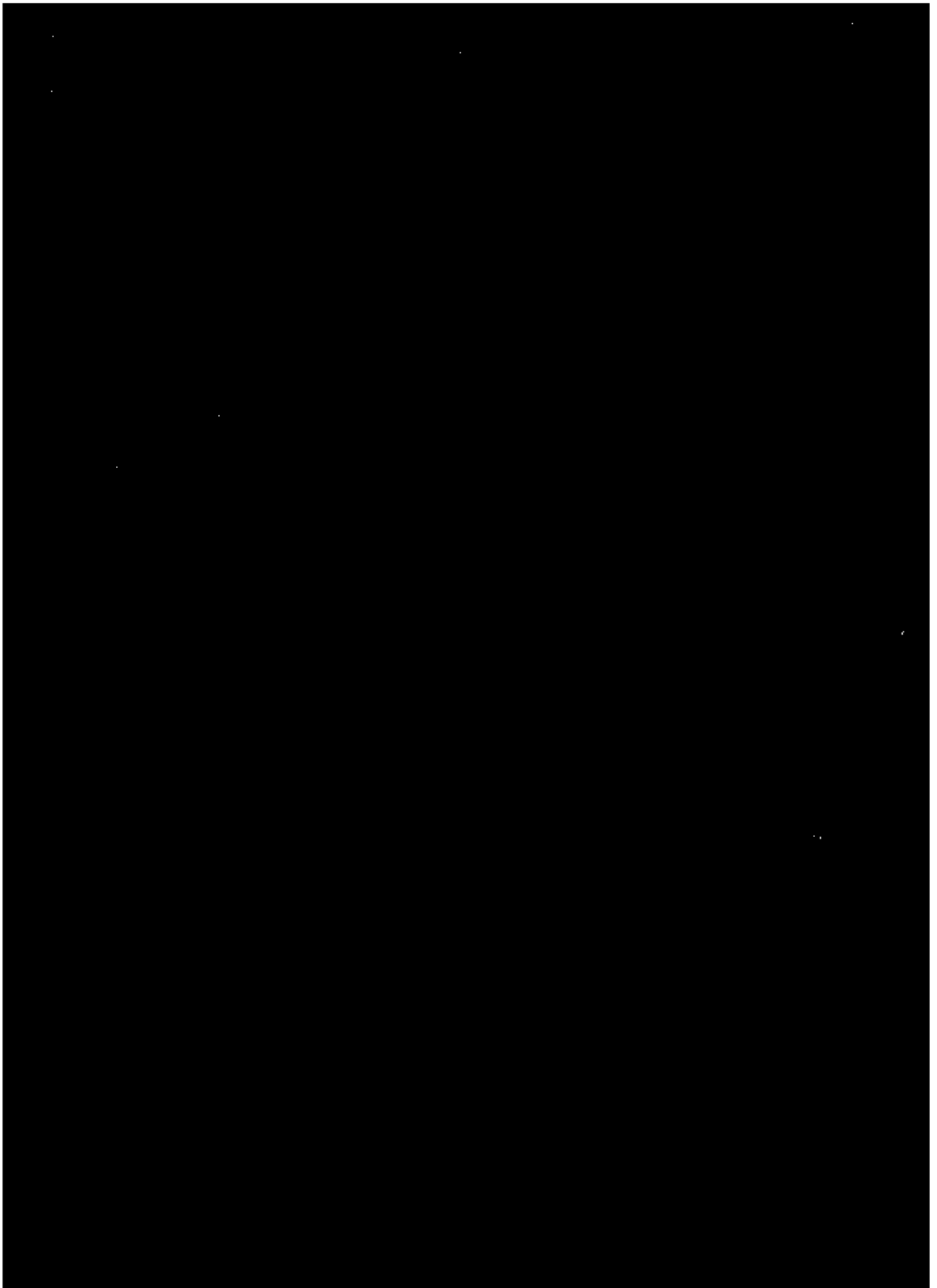
- (21) Shukri, N.M., 1945, Geology of the Nubian Sandstone, Nature vol. 156, No. 3952.
- (22) Youssef, M.I., 1962, Upper Cretaceous rocks in Kossair Area : Bull. Inst. desert Egypte.
- (23) Zeuner, F.E. 1958, Dating the past — an introduction to geology.

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٣٩٦٢/١٩٧١

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧١

أبوسمبل بين الصخر والصحراء

مسيرة في الزمان عبر قرابة مائة مليون سنة - من هناك ، منذ مائة مليون سنة ، تبدأ القصة الحقيقية لمعبد أبو سمبل بين الصخر والإنسان . وكيف تكون القصة الحقيقية إذا لم نعرف قصة الصخر والجبل الذي نحت فيه المعبد . . . ففي ذلك الزمان البعيد جداً ، وفي عصر جيولوجي يسمى العصر الطباشيري . . . تكوّن الأحجار الرملية التي سميت باسم بلاد النوبة . . . في زمان لم يكن فيه نيل ولا إنسان . . . ثم تلا ذلك في رحلة الزمان ، جريان النهر . . . ثم مجيء الإنسان . . . ثم تطوّر الإنسان ، وتطوّرت حضارته على شفاف نهر النيل ، فكان الشعب المصري . . . وكان للشعب ملوك . . . ومن بين الملوك ، رمسيس الثاني وزوجته . . . وكان أيضاً معبداً في النوبة سد قرابة الثلاثة آلاف سنة . ثم يكون لها سد القدر موعد حيث أقامت إرادة الإنسان المصري الحديث سداً عالاً على النهر . وحفاظاً على الحضارة العريقة نقلت معابد أبوسمبل من مكانها ، مخافة أن تدمرها مياه النهر المختزنة ، ولكي تبقى لحضارة الإنسان رمزاً . . . تلك هي عناصر العصة التي يحكيها هذا الكتاب .



To: www.al-mostafa.com